

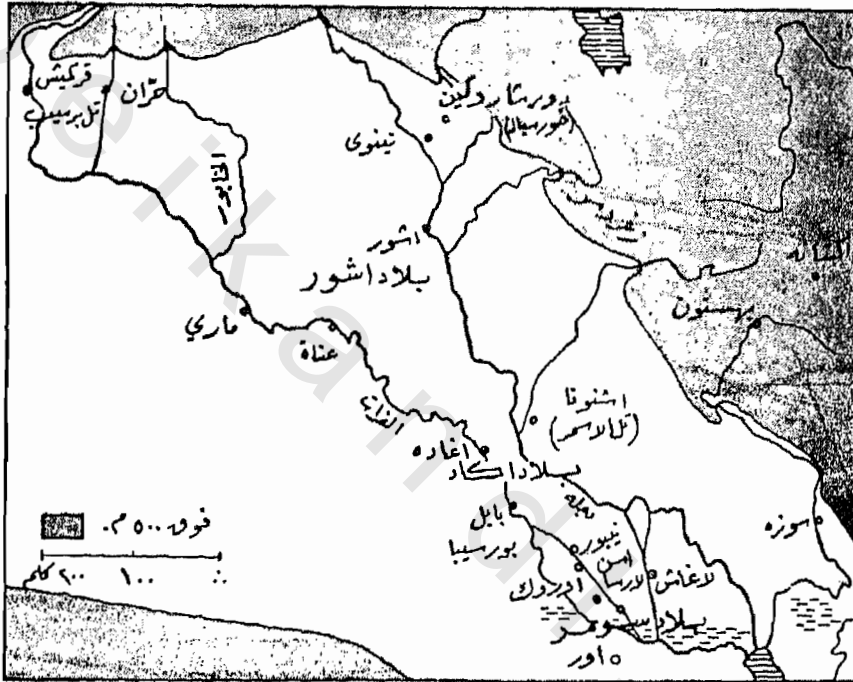
## حضارة بلاد ما بين النهرين

انلقاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة لحضارة وادي النيل .

ان حضارة مصر وحضارة بلاد ما بين النهرين ، وقد اعتبنا مصر وبلاد ما بين النهرين :  
تشابه في المصير والحضارة  
حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتها فيها اقطار اخرى ، ولدنا واتخذنا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عسر علينا تحديدها بدقة . وقد فقدت كل منها سيادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منها ، بعد ان زال استقلال الدول التي اتحدت معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا عبرة من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضي فعلاً على هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات كبرى : وهنا ايضاً فان حبك الحوادث يجمع الشئيت من آلاف السنين .

ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض سرداً مثل هذا ، ولكن تذليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان حضارات موحدة ومقفلة  
الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيط بها ، باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحية سورية خاصة نر بان لهذه البدايات بالاحرى منظر السبابس دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على ذلك فان الشواطىء الفينيقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتعوض عن الجهد الذي يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم يُجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافاً للشعوب المصرية فإن سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تلجأ اطباع رؤسائهم التوسعية التي لم تتعثر بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جلل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والنفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي تواقه اكثر الى ان تلقي بقواها ورجالها خارج حدودها وتصر بواسطتهم حضارتها .



الشكل ٩ - بلاد ما بين النهرين

لذا فإن حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ اكثر ترجيحاً في ديمومتها الزمنية واقل وحدة وتماسكاً ، اذ تظهر عليها المؤثرات القطرية بأشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . واذ كانت اكثر استعداداً للدوبان والتشتت ، غدا من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد ما بين  
وحدة حضارة بلاد ما بين النهرين  
النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه  
الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناغم ، وحدة مستقبه من السهل مقارنتها مع الحضارات  
المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيما

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد وسما التأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية اخرى . وفي هذين المجالين تبرز الديمومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثرا او تقلل سهولة مواطن اخرى لهذه الديمومة .

والحق يقال بانه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين ، وبشعور اقل استمرارا فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توختى المرء في عصر دعوه بالذهبي احياء الماضي السحيق الاكثر قدما .



## الفصل الأول

### الأشكال السياسية

التجزئة ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شامعاً عنصراً أساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت أحياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الأمد . وعلى كل فإننا لا نجدها ، في الحقبة الأولى ، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تبلورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لأن تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة — المثال هي البلدة ، أعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغموض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته إلا نادراً جداً . ففي هذا السهل المنخفض حيث تنتفي العروض الطبيعية ، ما عدا شعاب الأنهر والقنوات — وقد أحدثت فيضاناتها ، ولا تزال إلى يومنا ، أكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطيني — فإننا لا نرى أي أثر لحدود مستديمة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين . وقد نشأت مدن لا يزال موقعها إلى يومنا مجهولاً : كأغاده ( أو اكتاد ) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة . وما القول عن تخوم المدن التي غدا ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديمة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك إلى وجود الكثير منها وإن استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينة هنا آثاراً أكثر مما تركت زميلتها في مصر مع أنه ، في منطقة الدلتا أقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في أول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يلمس ذلك في مصر ، بأي توق إلى نظام موحد اعتبر لازماً لاسعاد حياة السكان . وكان باستطاعة هذا التنظيم أن يثمر هناك أيضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في أعمال الري والتجفيف . ولكن للفيضانات النهرية هنا تأثيراً أخف على الانتاج ، ولربما كان السكان أيضاً أقل كثافة . وعلى كل حال فإن التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنا نعد ذاتها عامل سوء .

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتعدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم  
الاستمرار على مفهوم  
مقامات البلدة  
بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات  
حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لا بل ولدت  
مراراً امبراطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الالقباب الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة .  
ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقة . ومع اسم  
المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاعاش وغيرها برز ، باكراً جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا  
ما ينطبق على سومر التي لم تعدد بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع  
الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها  
بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء احدى مدن بلاد اشورية  
العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن .  
وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر وسمه الخلية الاولى التي  
منها نشأت .

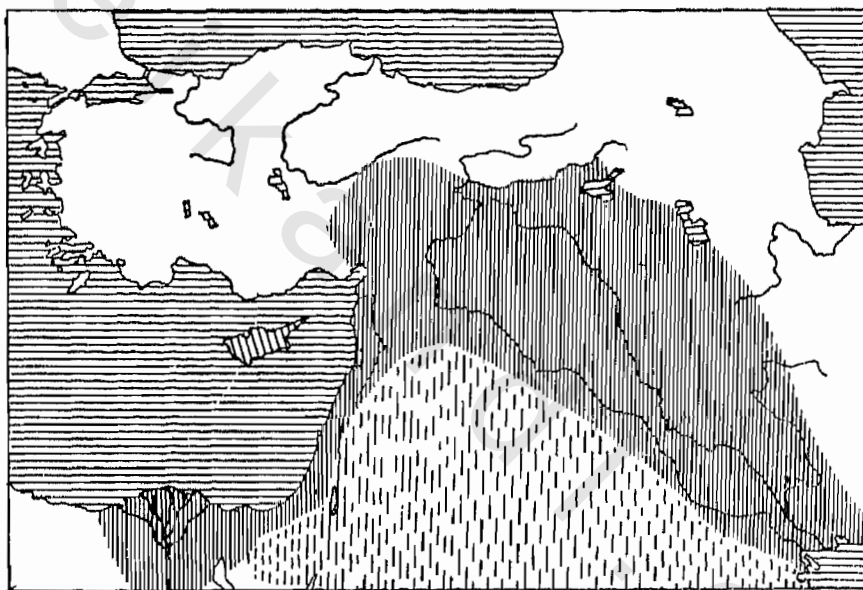
مفهوم الامبراطورية  
وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تعابير يختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان  
لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علاوة على سومر واكتاد ،  
الى منطقتين اخريين في الشمال - الغربي والغرب امورو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة  
واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد « من  
البحر الأسفل ( الخليج الفارسي ) الى البحر الاعلى ( البحر الابيض المتوسط ) » . ولكن يفضي  
بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً  
لانه يعيد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . ومما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل »  
و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي  
تسلسلت من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامبراطورية العالمية .

ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل  
ذلك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون في القرن السابع مغالاً فيها ،  
اي في عهد اوج عظمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بحيرة « فان » الى مصر  
العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين Medes .

تزعزع الامبراطوريات  
وفعلما بقيت هذه الامبراطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة  
للزوال السريع .

وقد سعى لتشييدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى ساميتي كيش الذي استقر ملكها سرجون ( القديم ) في اكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حورابي العظيم . ولم تكون بلاد ما بين النهرين في كل مرة الا نقطة انطلاق يسمى منها الاباطرة لاختضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زعروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالاً ، ووادي الفرات مع ماربي في الشمال الغربي ، ثم عرباً الشواطىء السورية ولربما ايضاً - كما يزعم اقله سرجون القديم - جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعداها الى اطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الاتجاهات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .



الشكل ١٠  
امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذ كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السباسب المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالا أشد قسوة ، وقد بلغ الزبى اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريون . ولكن لم يحل الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

وعبثاً سعى فاتحو بلاد ما بين النهرين ان يجمعوا تحت سلطانهم المدن التي اعتقدوا بأن

مدنيتها قريبة مما اعتبروه أساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغربية ؟ ان النزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولية تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يحمد لها هيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسعى حتماً ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو اكثر شيوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة بتفسير بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يمت الى « الديمقراطية البدائية » حيث كان مسيرو الامور « الشيوخ » يستشيرون ندوات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة وحل هذه الأزمة فقط . وقد حوّل تكاثر الأزمات وعبقورية بعض الزعماء هذا النظام العارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، ان هذه النظرية تسيء الى المبدأ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الآشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارسقراطية بورجوازية .

الملك « نائب الآلهة » لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تعبد في تلك المدينة ، فان لهذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظيمة وغنى . وهي التي توحى القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك !

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء » ، وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكده . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذور السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما تتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً و« نائب » و« مندوب »

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ « الملوك » ، لا بل « ملوك العالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله آشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » — وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى — الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هذا الاله او تلك الإلهة هو « ملك » او « ملكة » المدينة .

يظهر كل هذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى تعيين وتنصيب الملك الهيكلي ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عدة ، بالمظهر الشيوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلمنة ، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقها في الزمن .

وفعلًا يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليه بحمد » او « تلفظ اسمه » . وكانت تتم هذه الوقائع بموجب طقوس لا تزال نجعلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدأ الوراثة إذ ان الملوك يفخرون بالاصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحياة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بأنه يعرض من ينتخبه لتقره الآلهة ، إذ لا اثر لمبدأ البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بأنه اصغر سنًا من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على بين الخضوع والاحترام لابنه ، ويلج المنتخب « بيت الوراثة » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلية . ويوم ارتقاء العرش تجري احتفالات دينية يمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويُقدّم الشعارات ، رمز السلطة الالهية . وتقام هذه الاحتفالات في آشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يغدو من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من سرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستاني ، او تلك التي تؤكد بان اشورناسيرابلي الثاني — ملك اشوري من القرن التاسع — يعتبر نفسه من اصل جبلي وضيع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشتهار ، سيده الآلهة الرهيبة ، قد القيت نظرك علي ، واردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتيني من بين الجبال .. وعهدت إلي بصولجان العدالة » .

ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازمة ، واجبات الملك الدينية واجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .



ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بل الكاهن الاكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالقب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العبادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو اكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهير ، وتقديم الذبائح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقويم ما اعوج منها . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الاكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من أسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية . ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و « اصفاء » و « حقيقة » تذكر اكثر من مرة . فحمورابي عندما اعلن قانونه اراد ان يرضي ستمش « إله العدل » وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والزدنية » . ويمنع القوي من الخاق الاذى بالضعيف . . ولكن في الاساس تتحد العدالة اتحاداً ذاتياً بارادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الآلهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العمياء . انه يسعى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ . . . انه يضرع الى الآلهة لتلهمه ؛ وبالمقابلة عليه ان يخضع لاجاءات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطمثون بالله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعار آخر ، بالمثابة على صيام مضمّن ينهك قواه ، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ . . وهكذا يفدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليه ان يظهر بمظهر التقى الشديد الورع .

يبدو من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه الملك صلة الوصل بين النظام الملكي المصري والنظام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينها وضوحاً ايضاً ومن اهمها دون شك عدم اعتبار ملوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نفراً من الملوك الاقدمين في الزون (البانتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المئات فان الرجال الذين يكتسبون صفة الالهية يعدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكاد ، الذي كلل هامه بالتاج ذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا امر لا ثاني له ! ففي الالفين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نعت يدل القارىء على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله » . ولكن لم يعمّ قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حمورابي على ابعد تقدير . وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشدّه بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرادية . وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حمورابي هو اهي » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الا على احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهي ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومة تسترعي الانتباه في العهد الاشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات يمين ، او تأكيد من الملك بأنه ينتسب بوشائج القرى الى الآلهة كما يمت بالوقت نفسه الى اصل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينما يرى الفرعون المصري المنحدر من صلب اهي والمتزعزع على يد الآلهة يرتقي حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بارت الملك في بلاد ما بين النهرين هو ممثل الآلهة فقط قبل البشر ومندوب البشر لدن الآلهة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمين الرباني والانساني . وهو لمؤوسيه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رعبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجو .

السلطات والطم الملكية سبق واشرنا الى الحدود التي تقررهما هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجعل هذه الحدود من الملك رجلاً شبيهاً بامثاله الآخرين ، إذ ان خصوصه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مؤوسيه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحياة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتستتر بحجج دينية ، ام ظاهرية فقط لتخفي والحالة هذه ايماءات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من الحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطباع دون شك في هذا المجال باختلاف الملوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، ولربما غدت هذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغداً من ثم لازماً عليه ان يحارب بصورة مستديمة وعلى رأس

جيشه . ويتباهى الفن والأدب لإعلان بطولاته . وتعدده الآلهة بالبصر وتمنحه إياه ، لذا غدا وصف المعارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاه وتحميه . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الآشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تنقضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، وبإدارة الغزوات التي يلقي رمام قيادتها ، عند غيابه ، الى التورتانو ، تران التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هذا الاختصاصي يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يختفي وراء الرئيس الاصلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معروفة لا بأس بها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الآشوري نستطيع ان نتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والخيالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قته ، بان يلقي نظرة على الجيش الآشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهام الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر - وكانت الخير تجر العجلات السومرية القليلة العدد - . وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعلوها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي الجر ، ويلي المحارب والقرب منه حربة وجعبة كبيرة للسهم ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقلب بين يديه ترساً دفاعاً عن رفيقه . وكحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيالة . ولم يكن آنئذ ركباً او سرج بل فرش . ووجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما برح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومى . ورافق في اول الامر المقاتل الخيال مساعد يتطلي صهوة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ ألبس الحصان قطعاً و اضاف المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المساهة . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الآشوري الهجومية .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحربات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحملوا الدرقه . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة القلاع الاسلحة دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يحتاز رجالها سباحة ، دون شك ، مجاري المياه مستعينين بظروف من جلد منفوخة او يملكون مجاذيف القوارب على حوافي الاطراس المرتفعة .

وللجيش أيضاً فرق من العملة المجهزين بالفؤوس والمعاول لشق الطرقات في الجبال ونصب الجسور والأسراع في أعمال الحصار . لا بل أصبح للجيش فرق للتموين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحمار ، إذ ان موارد السداد الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا أصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الأركان مشاكل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات أكثر من التقدم الذي أحرزه في فن الحصار إذ لم يجد العدو ، أمام تفوق الآشوريين في المعارك ، وسيلة أفضل من الاحتباء وراء أسوار مدنه . ولكن كان الآشوريون إذ ذاك يشددون الحصار بأبراج متحركة يصبون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . والآشوريين آلات متحركة عليها أكباش ثقيلة لدك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يغلب بواسطة السلام أو من ثغر الأسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرّد وجلاء الأسرى وأهلهم الذين يصبحون فريسة لتتكيل المنتصر بشراة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لأي تضعضع أو تحاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود أساليبهم — أو بالأحرى لا يعرف لهم أساليب ! — بأسراب من الخيالة لا قرار لهم أكثر خبرة من خيالاته ينقضون من السبابس الشمالية والشمالية — الشرقية . ومع ان الغزاة (السيث Scythes) والسياريين (Cimmériens) ، هؤلاء الرحل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجهوا ضربة قاضية إلى الجيش الآشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه إلى ان هوى تحت وطأة الماديين (Mèdes) — وهم أيضاً خيالة أكثر مهارة — والبابليين المتمردين . وهكذا حيتّ هتافات الغبطة والخلاص والضعيفة المتأكلة حسداً وتشفيًا التي فجرتها الشعوب المغلوبة على أمرها حريق مدينتي آشور ونيوى وقد هوتا ودمرتا .

لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب  
التعبئة المعينة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكراً جداً الخدمة العسكرية الإلزامية أيام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مغامرة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً يحنود ذوي جدارة . لذا فان قانون حمورابي ، زمن كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندي مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستديّة في فرق الحرس الملكي ، ولا يحنود بعضهم ، وهم أكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرم . وبالعكس ، في

ايام السلم، فانهم يعيشون مع اسرهم باستئجارهم ارضاً اقطعهم اياها الملك، مع بيت للسكن وقطيع، مازمين فقط بتلبية نداء اسناداً الى تطور التعشة. ولم تصبح وراثة هذه الاقطاعية حقاً ولكن غداً ذلك امراً متبعاً. ومن المعتقد، اسناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل، بان هذه الارص أصبحت فيما بعد ملكاً للمعطى اليه، ويستطيع ان يبيعها.

ولا نجد شيئاً لهذا الأمر، كما نعرف اقله، في الامبراطورية الاشورية. فان الجنود الحقيقيين يمثلون، نسبة الى عدد السكان، عدداً اقوى بكثير، وهذا مما يدل دون شك على وجود الخدمة العسكرية الاجبارية الفعلية مع تدريب اسد تغلغلا في الجماهير. ونجمل ايضاً، سدياً، اذا كان الاختلاف بين فرق الجيش يتناسب مع التفاوت الاجتماعي. وهذا من المحتمل ان رجل الحيلة او المقاتل على العجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال. ولكن، حتى وان سُملت التعشة مجالاً اوسع، فان المحود الحربي اقوى من ان يتحملة الاشوريون وحدهم. لذا يستعين الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم. لا بل يبدو مراراً بان الملوك فرضوا تعشة ما على البلاد المغلوبة على امرها. ولكن تبقى صنوف الجيش الاساسية دون ريب من اصل اشوري.

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية ترثها الامبراطورية الفارسية، حتى ان آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين، المملكة البابلية الثانية، تساهم بدورها في اغناء هذه المجموعة اذ انها، في مدة سيطرتها الوجيزة التي تمتد من تصعصع بلاد اشور الى الفتح الفارسي لا تتوانى عن تجنيد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيق الشاعر ألسه (Alse). وفي الفترة نفسها يقدر فراعنة سايس (Sais)، مزايا اليونانيين الحربية. وعندما يتخذ ملوك الفرس مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس، فانهم بذلك يحذون حذو الممالك التي قضوا عليها.

ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة، الادارة والموظفون توجهه اسباب اضطرارية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم ينجح خلقه الى ذلك. ويلزمه لجيشه كفاءات مادية وبشرية، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحدة الاقطار والشعوب التي يسيطر عليها. ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته، ولا يتسنى له ذلك الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة يقظة.

واهتمت هذه الادارة، في اول الامر فقط، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك، بتدبير الاملاك الملكية. واذ تتخذ من القصر مركزاً لها فهي تُنظم «كبيت» الملك ولها نظار وموظفون يقومون بخدمات معينة. ونرى هذا التنظيم، ولو بصورة مصغرة، في «بيوت» الملكة وولي العهد. ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة بأسرها، وذلك بسهولة

اذ يظهر بانه لم يجر قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وتنشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كفية التوفيق بين السلطة الملكية واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة اكثر اتساعاً . وفي هذا المصارع لم ينجح نظام المركزية الملكية اكثر من نجاحه في المملكة البابلية ايام حورابي ، حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأتوا بشيء يفوق اتفاقاً ما اتى به حورابي . انهم لربما تعاطوا اكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على نصف بدواة ، وهي اقل تنظيمياً واقل حصوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي اكثر رخاوة .

وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المركزية زم حورابي المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » - وقد كانت لقبهم قديماً « الملك » - . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيطر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوم ، معتن مراراً بامور تافهة جداً وبسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك باكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضمار العدالة . فلقد استغل حورابي ، وهو الملك المشتزع ، سلطاته القضائية ليوحد وبوطد المركزية . والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهياكل ، يوحد جهاز قضائي ملكي يعين العاهل فيه ممثليه . وعلاوة على ذلك اباح حورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره الاعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدد يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين اتخذوا الجنودية مهنة لهم .

الاهية الملكية  
ان للملك على كل حال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية اقل شأنًا والهيئة الادارية اقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهياكل ، يحشر فيه عالم من الجنود والعبيد والخدم والكتبة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة ايام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنا في الحرب او في الصيد والقنص - وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب - او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة فلا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو وأكثر وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجعد ، يكلل هامه التاج العالي وسط رجال حاسري الرأس ، يتربى بالحلى ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الخدم يلوحون بالمرآح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوسط ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بعظمة وثبات حنان ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الآلهة ليكون « مندوبها » على الأرض .



## الفصل الثاني

### الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، عالماً على حدة في حياة مدينة بلاد ما بين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى المعامل عرى تتعدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الاسرة او العبد بسيده . ولقد وجد المنقبون في اور - اور في بلاد الكلدان حسب التوراة ، ووطن ابراهيم - قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنية جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكية . ويحوي كل منها على اقل تقدير هيكلية "نظام" ، ومراراً عشرات وعشرات رقت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة . وهناك اشخاص يضجون طوعاً بجياهم - ولا فرق ان فرضتها التقاليد - وهم ينتمون الى حاشية الملك ليرافقوه في عالم غير عالمنا الارضي . ولم يعثر على اي قبر يرتقي الى عهد اسبق في بلاد بابل او آشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنا بعض اللوحات الآشورية الطقس المتبع عند دفن المعامل : وهي تفيدنا بأنه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصلية . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربما اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة - امّا أصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون - رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثرأ زمنأ طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمالاً ينتسبون الى كل المهنة ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورجال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لاوامر ماطر اذ ان الاملاك الملكية المشتتة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسعاً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويسلخ الملك عن املاكه اقطاعات يخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقطع ايضاً منها ، اقله زمن حورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافأة ، لجنود اتخذوا الجندي مهنة لهم او لموظفين . ويستثمر ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كالملك كبير يهتم بارباحه . انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج . لا بل



يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبارنا اعمال السخرة التي تفرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الحلوبة وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكسب غلال املاك العاهل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لاراض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضا رأس مالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

**الهيكـل** وتقوم الهياكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلًا . وتصنف هذه الهياكل درجات وفتات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخر ، وبصورة استثنائية ، ملك ينتسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهياكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض المزارع ، فان المجتمع الذي يتخذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً يصبح كأنه طبقة مغلقة . وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل ، وفي عهد الصبا . كما توجد ممن تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس وممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والخبازين وحتى البوابين ان يقفوا عليها . ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من العبد حتى ابن الملك او ابنته ، ويكوّنون ، تحت رعاية الكاهن الاعظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتعتاش من ثم من مدخوله ، اعني من غلة ارزاقه او مما يفيض عن التقادم والذبايح .

ولكن لا يستنكف افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثرواتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليه ويملكون ارزاقاً شخصية يستثمرونها كما يحلو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشتغلون ايضاً للجمهور لقاء أجر ان سنجحت الظروف .

لا يخلو هذا التنظيم من خلل . فباكراً جداً بدأ التذمر من الالتباسات التي لا مفر منها . ومنذ الالف الثالث افتخر احد ملوك لاغاش بانه وضع حداً نهائياً للخداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعمال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن أصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد بل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان روض كان يتعلق بفوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فلربما فرض تحصيل مثل هذه المنافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع ما سبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحله .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مائل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً ووهبوا الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء العقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومها تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تعززها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظار . وللهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكنز ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حياة البلاد الاقتصادية . ويتشابه تشابكاً متيناً نفوذهم المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احياناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حورابي بان الهياكل تقدم قروضاً بفائدة تقل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام المجاعة الحبوب دون ربح ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ! وعندما فرضها حورابي فرضاً اكتفى بتثبيت تقاليد متبعة . وهكذا يسعى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام بافعال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حورابي مشيئة شمس .

ان طرحنا جانباً عالمي القصر والهياكل فاننا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع الميزوبوتامي الا في عهد حورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكون هذا

التشريع النص الاساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لها ، وعقود يختلف زمانها ومكانها . وان وقفنا على نبد من قوانين اخرى سنبا ملوك اور واشنونا وأسین ، او ملوك آشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزمن تكشف لنا القناع عن اختلافات تتعلق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والعادات لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حمورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقله في المدف : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر ، والشخص الذي ينحني « المروؤوس الوضع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حراً كان هذا الاخير ام مروؤوساً .

ان الغرابة في هذا التقسيم هو وجود الطبقة الوسطى . اننا نجعل اصلها كما لا نعرف المروؤوس ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعلينا ان نقدر بوجودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخرين . فالذي يضرب مثلاً انسة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل<sup>(١)</sup> فضة بينما لا ينقد ابنة المروؤوس سوى خمسة ائقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاخر المستحق لقاء احدى الخدمات اذ يقض الجراح الذي اجري عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

ان العبد ، ذكراً كان ام انثى ، يتساوى قانوناً مع الشيء المادي الممتلك المنقول العبد ويوسم غالباً . ويجب بتر يد الطبيب الذي يزيل هذا الوسم . ويعاقب معاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هارباً ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الاليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويرهن ويودع . وفي عهد حمورابي غدا الثمن التجاري العادي للعبد الذكر الذي بلغ اشده عشرين مثقالاً ؛ وهذا هو ثمن حمار . . . وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتمثل هذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لفترة اختلفت مدتها قديماً ولكن جعلها القانون شهراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثرها في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبيدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتهما ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبيد احراراً كوالدهم ، فان الاولاد الذين

(١) وزن المثقال ٦ غرامات .

يستولدم سيد خليفة عبدة لا يعتقدون ببلء الحق في الوقت الذي تصبح والديهم حرة ، الا عند وفاة والدم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسرها مديونه وامراته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول ان القانون لا يقر العبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة - حالة عبد ولد في بلاد بابل واتي الى الخارج واعتق هناك - يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية . ولكن يستطيع العبد دوماً ان ينال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة ، يؤكد انه بإمكان العبد جمع قنوة ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب . ويقدر العبد ان يقتصر من الهيكل مبلغاً لا يكال القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حمورابي ، في احتفال ديني يظهر اثناءه جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظمى ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي المروسين والهيبد .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تشريع الاسرة يحقق نظام الاسرة للمرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع ادارة املاكها ، وهذا امر يسترعي الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لحيه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكاً للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجته فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبيعها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها . وللأمراة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجب على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطلب للخدمة فيعود اذ ذاك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الربيع .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذاك ضد قراره

التعسفي ، اذ عليه ان يلجأ الى الحاكم ويثبت شكواه بادلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فان سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق باقامة دعوى ماثلة لتعود الى عند ذويها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضاً تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن القاء الزوجة المجرمة مع غريمها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحد من شدته حق تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقم الزوجة ومريضها هما من اسباب الطلاق الشرعية كرفض المرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في اداها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خلية . ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون ، في مثل هذه المواقف التي لا تشرف ، يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث الحجب فيها الرجل اولاداً من زوجه ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبدية التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذاك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية . وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تفسل رجلي الاولى ! » .

وبعد ايجاد الحلول لمختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي المتبني في حال جحود المتبني او والديه الطبيعيين . فالمتبني الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيها بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبني الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه المرأة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفریق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متتالية . والشئ نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فبوسع الوالد ان يهب الهبات لامراته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يحرم من الميراث ايّاً من اولاده الا اذا سمحت له الحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم . ويجري تقسيم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العزب ، ويحرم من الارث اولاد الخلية ان لم يكن الوالد قد اعتقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتقهم فعليهم

لمع هذا ان يدعوا لاختوتهم افضلية الخيار بين الحصص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استثمار حصة ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم الاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولا كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتاً .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكاً : فيذكر مثلاً بأنه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا نراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين ، فريقياً في عقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجهل بأنها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تعويض او لجوء الى المحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلمها ، على الزواج من اخيه او من احد الاولاد الذين انجبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خلية او خليلات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت المرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً - مع ان بعض العقود تنقض هذا القول - الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد اوضاعاً تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنعكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استلثنتها . ويلزم لاهياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والأسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد المشتري اكثر من المؤرخ .

يدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويعتقدون بأنه الحياة الاقتصادية :  
من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها  
لتأمين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستقرار العادل .  
العمل الرسمي

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحذب الآلهة على الاعمال التي تؤمن

للإنسان طعامه ورفاهيته . ويعطي المثل والقُدوة مالمكو الاراضي والهياكل والقصور واصحاب الكنوز والخيرات منها احتلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالاردهار العمومي لما تنفقه عليهم من خيرات مادية فصائل التقوى والطاعة وعرقان الجميل . لذا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر : اذ لا نجد أثراً لاقتصاد موجه ، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصح المزارعون فلاحيتها . ولكن في بعض المرافق ، يشتد تدخل الدولة بصورة اوضح واعمق مما يجري في وادي النيل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حوراي ، بعد ان حدد الراتب والشمس في مجالات عدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لتثمين رسمي ، ونود ان نعرف ، اسناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطورات التاريخة .

الزراعة تنبؤ الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، باكرأ حداً ، وعدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها . وتحفر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظام اعمال سخرة لا يعني منها الا امتياز ملكي . ويدبر مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصاميم احواض وخزانات المياه وقنواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاقبة كل اهمال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها تقلبات الجو بين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفلاح والبقار والراعي ، وبديل استئجار ثور او حمار ، ومسؤولية الحوادث او الخسائر التي تحمل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبدأ الملكية العقارية المصغرة جداً ، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الاراضي الزراعية . وما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة ، واثارت المطامع ، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشاكل التي لم يستطع حلها الا الهياكل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب لحياة اقتصادية تخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وقمتت ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القديمة ، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حصص اسطورية تفوق شهرة تربة مصر . ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الحبوب كانت تعطي غلة تعادل ٢٠٠/ او ٣٠٠/ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الحبوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لمعظم الائمان والتعويضات التي حددتها القوانين . وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فان

نبتي : السمسم ، الذي يستخرج الزيت من حبه ، والجاورس أصبحنا كالشجيرة ! ولتأكد هيرودوتس بان احداً لن يصدقه ، استنكف من الإشارة الى طول هذه الشجيرة . ويعترف «ابوالتاريخ» بعدم وجود الكرمة وشجرتي الزيتون والتين ؛ ولكنه ، وقد حذا حذوه سترابون ، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المنافع التي تؤديها : انما قد تعتبر المادة الغذائية الاساسية ، وخمرة ، وعسل ، وخل ، واليابق للنسيج ؛ حتى ان فواة البلح تصلح وقوداً للجداد ، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات « ويقال ، كما يعترف سترابون ، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالاً لشجرة النخيل » .

لذا فان اساليب لبقة ترشد عمل الاسان وتساعد ، وقد بلورتها حقبة عدة من التجربة والاختبار . فقد عرفوا اثاره تلقيح شجرة النخيل ، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور الذي يقرون الطويلة المتوتية ، ومن الحمار ، والحزير ، والصان ، وطيور القن حيوانات داحنة ، وهم يجاربون ، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة ، والحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحارى والجبال او في مناطق المستنقعات . ولم يكتفوا باستعمال الحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضا المذرة .

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل ، اعني السهل المنخفض الذي حبه الطبيعة . وكسبب ومُسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يعكسه احد ، فان كثافة السكان ، التي لم تخضع لاي احصاء ، تصل الى نسبة كبيرة جداً ، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها . وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى ، اعني مناطق الجبال والسهل . ويغدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة . ويذكر هيرودوتس بان ثلاث « قبائل » على شاطئ الخليج الفارسي ، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجدياً ، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً . وهناك بدو يتنقلون سعيًا وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجل . وهناك سكان الجبال الذين لا يجنون الا غلالاً ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية ، بينما يعتبر في مناطق اخرى هوأ نبيلاً لا بل محصوراً بالملك . وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات ، التي تعيش على الحدود ، والقريبة من مواسم السهول الغنية ، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار . وبقيت هذه الجماعات ، رغم الحملات التأديبية المتكررة ، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي لا تتغاضى عن اي تجاوز على القانون او عصيان .

العمل الصناعي  
ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل . ويكفي ان نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لتتأكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال غلى الخشب والمعادن ، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث . فهم عرفوا



خمس معادن : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والافذار ، وقاموا باعمال المزج واللحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالمينا . وقد استبدل الخنزف بالمعدن للاواني الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتعاطى مع الهياكل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحمر الخ ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حمورابي تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الاولية ان ما تحتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كمالها وجودتها هو المواد الاولية ، وخاصة المواد المعدنية . وبصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزفت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطل به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسة والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لا بل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الاودية الرسوبية ، الخشب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند ، والنحاس من قبرص وارمينية او آسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس لربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه ، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحمر والقماش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد اثراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فمن المؤكد بانه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسعى البلاد الغربية جهدها لكفاية حالها بحالها وتستنكف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرأ عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللأخطار المحتملة والمضاربة .

وتطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشا كل النقل وسائل النقل وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة باهون الطرق فنذ اوائل الالف الثالث غدت المراكب تتسع لمحملة ذات وزن محترم ( اكثر من مائتي هكتوليتير ! ) . وهي تسير بواسطة المجذاف او الشراع . ويحدد قانون حمورابي بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربابنتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصبح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجار الكبيرة من الجبال الشالية - الغربية او الشالية - الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية . مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجرب البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالاعمال الحربية فقط . ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجرب كالحير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الحبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستم الشرق عليه آلاف من السنين .

استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقل عرلة من التجارة ومستعمراتهم موقع مصر . وترجع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت عنها كثيراً كمناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قدماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببها هجرة الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هذه تبادل الخيرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانها في اواخر الالف الثالث ، كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » جماعات من التجار الاشوريين يتعاطون اعمال السمسرة للاستيراد والتصدير . وهم يدبرون شؤونهم كما لو كونوا جمهوريات صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، ويقفون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هذه المؤسسات دون ان تبقي لها اثرأ فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . ومما يثير الدهشة ان يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقة ، اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان يفهم توسع الاراميين الآتين من السبابس الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنه دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رحباً للتبادل بين الاقطار لا بل بين الدول . وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للاتيان على ذكرهم .

تولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكراً جداً جداً ، وتنظيم المعاملات اشكالا متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصري .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الغلال كان ام لجهة المال . ويعين القانون حد الفائدة الاقصى منذ الالف الثالث . وان اعتبرت الفلات الزراعية - وتذكر النصوص « الشعير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولاً واسعاً - فالفائدة هي ٣٣ و ٣٣ بالمائة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٣٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات مادية جداً تفوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، اقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تتعدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال . وعلاوة على ذلك ، ومنذ القدم ، فان على القصر والهيكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهرها تساهلاً وهدباً اكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احد الهياكل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الحبوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايحار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمسرة والتوكيل الخ .. وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

ويتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب الاصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختتامهم ، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الديون ، امام موظف يجمي اشرافه المدينون ضد قساوة المرابي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعمال هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذ يكون غالباً وكيلاً عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخرين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصيرفي العصري .

المعايير والقيم تسهلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذاك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض عنه ، بصورة تزداد حسناً او تقل ، باستعماله الشعير والمعادن ، كمعايير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعمالوا الفضة التي يضاف اليها الذهب ، بكميات قليلة للتعامل مع الغريب . ولها كل والقصور مكاييل ومعايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بأن نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كمعايير ، غدت عرضة للتغيير . وقد يحمل الحصاد على انزال كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة ( عادة هكتوليتراً واحداً لكل ٣,٣ غرامات من معدن الفضة النقي ) الى النصف او اكثر . وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة . ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذ كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرن

السادس . ولكن أيام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليه عشرة اضعاف فقط .  
ويخضع هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل  
في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

ويكون عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في  
حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا بجمال هذه الحياة فان الوقوف على حيويتها  
وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتنا لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة ، يحملنا على  
الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية .





١ - افرير الأثانل السوداء في مغارة لاسكو



٢ - ميدة دامار النند البيضاء

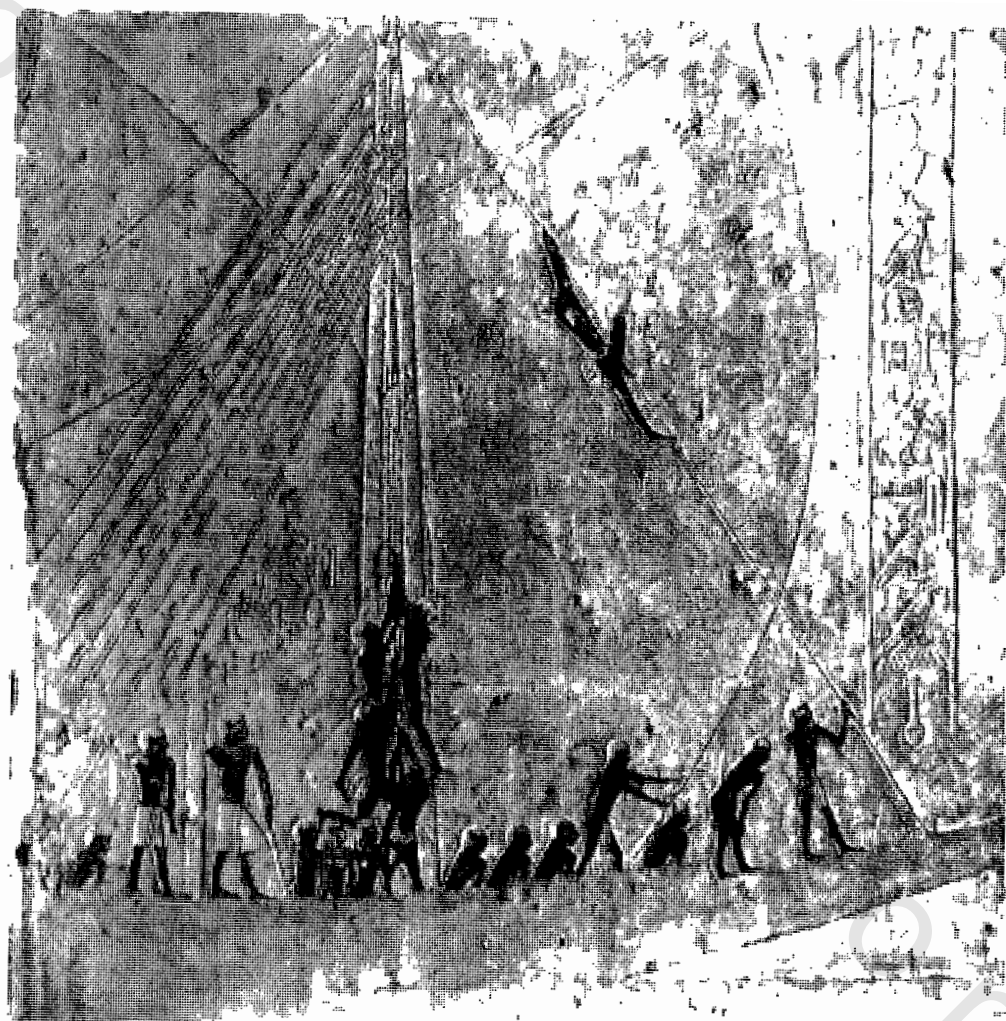




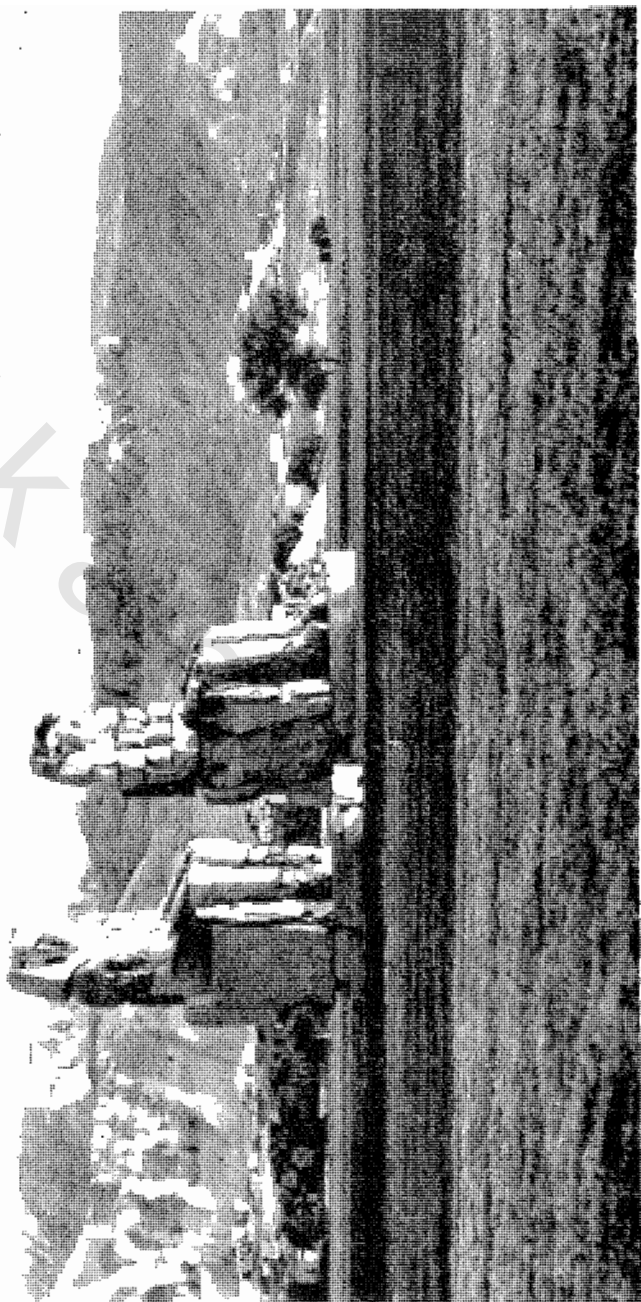


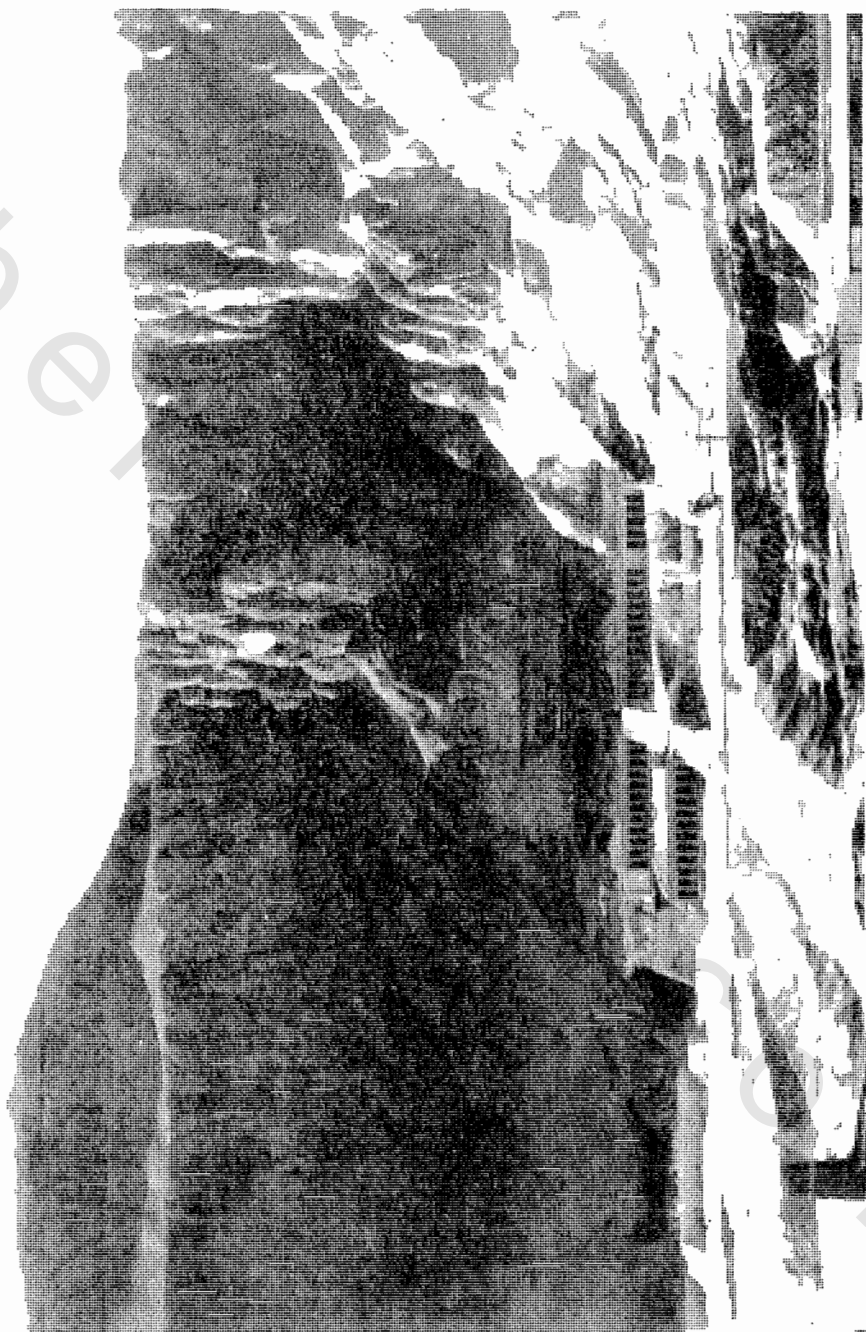


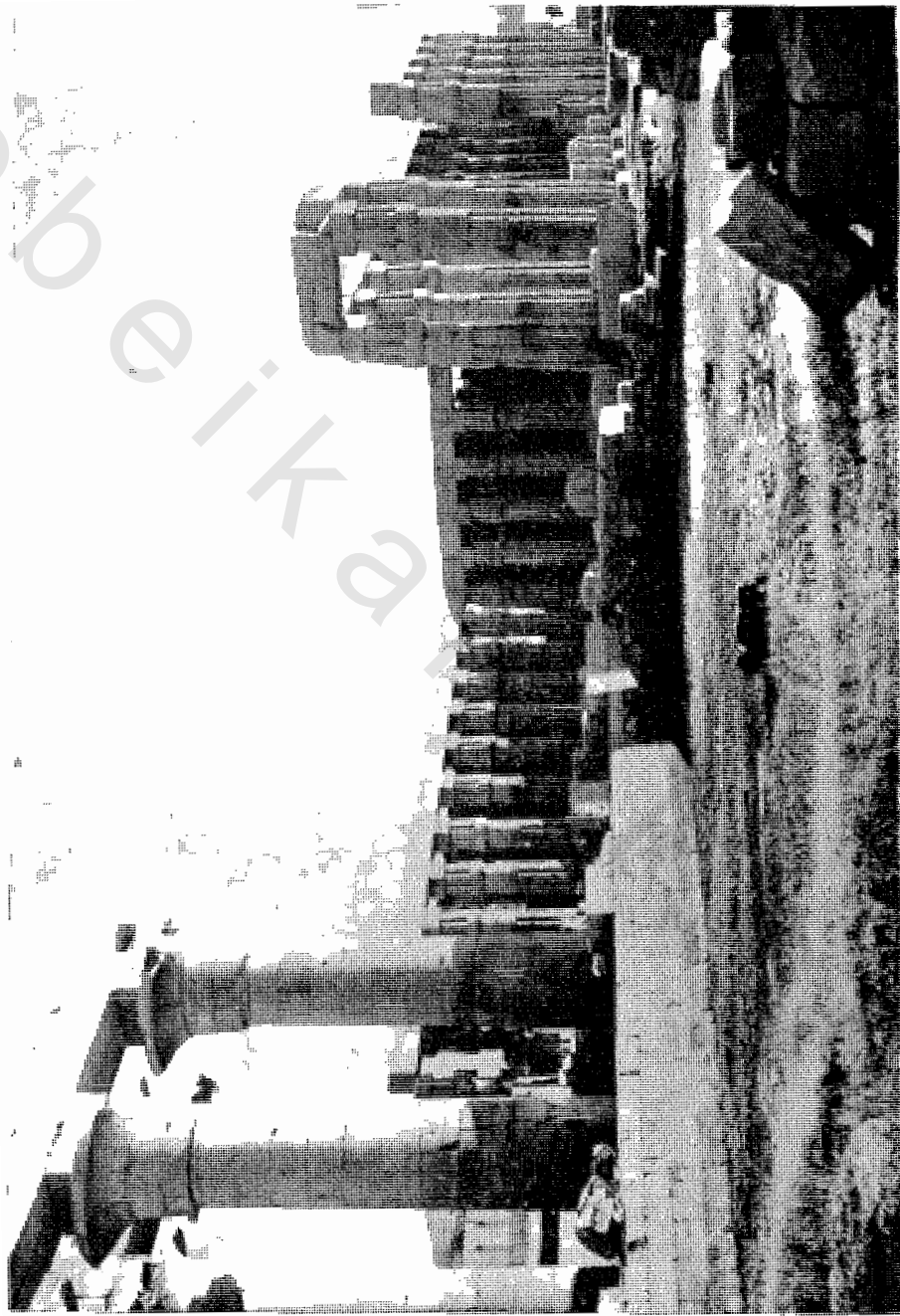
٥ - أبو الهول في الجيزة



٦ - نقش ناتىء فى مصطبة أخوتحوتب



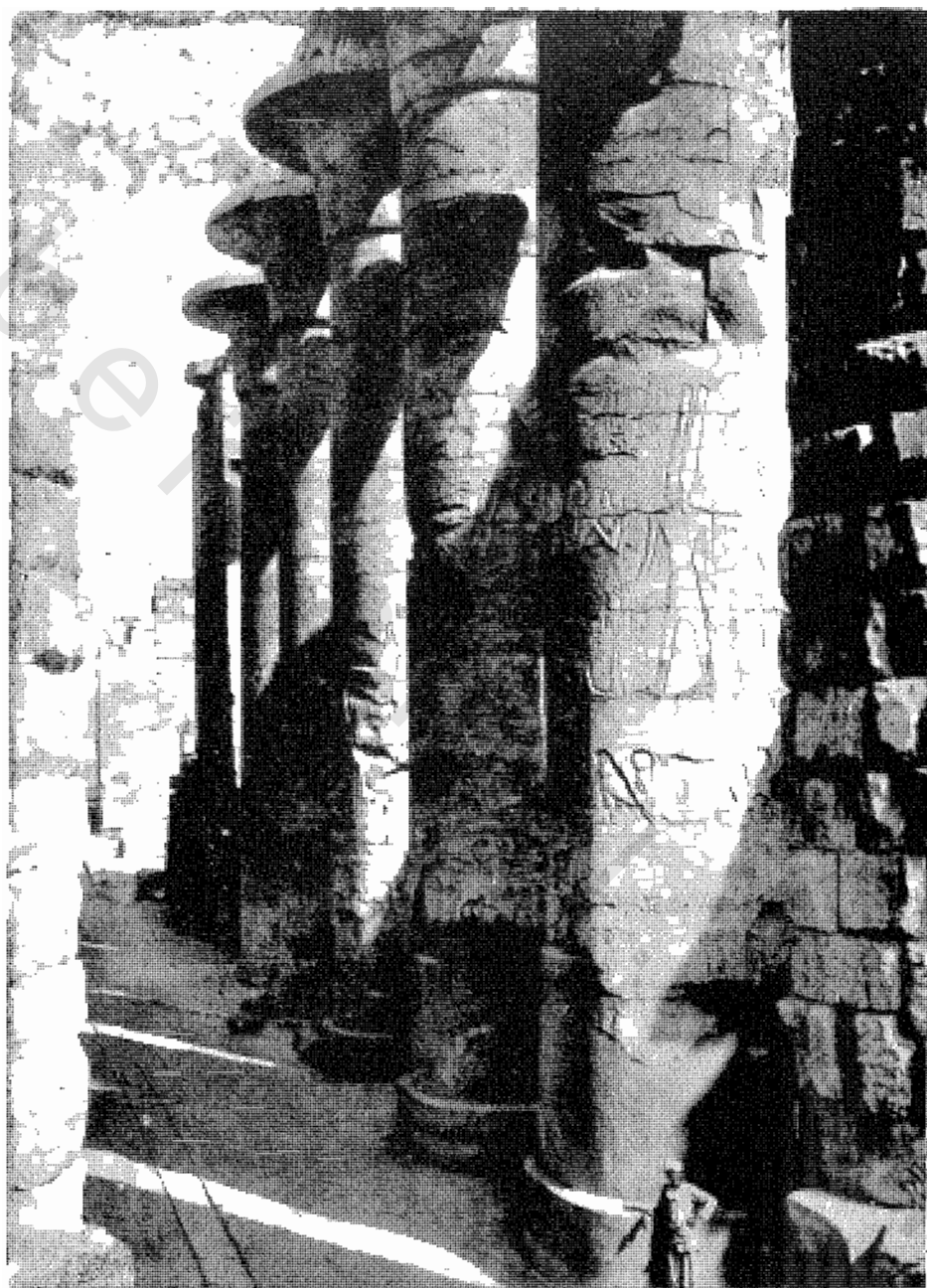




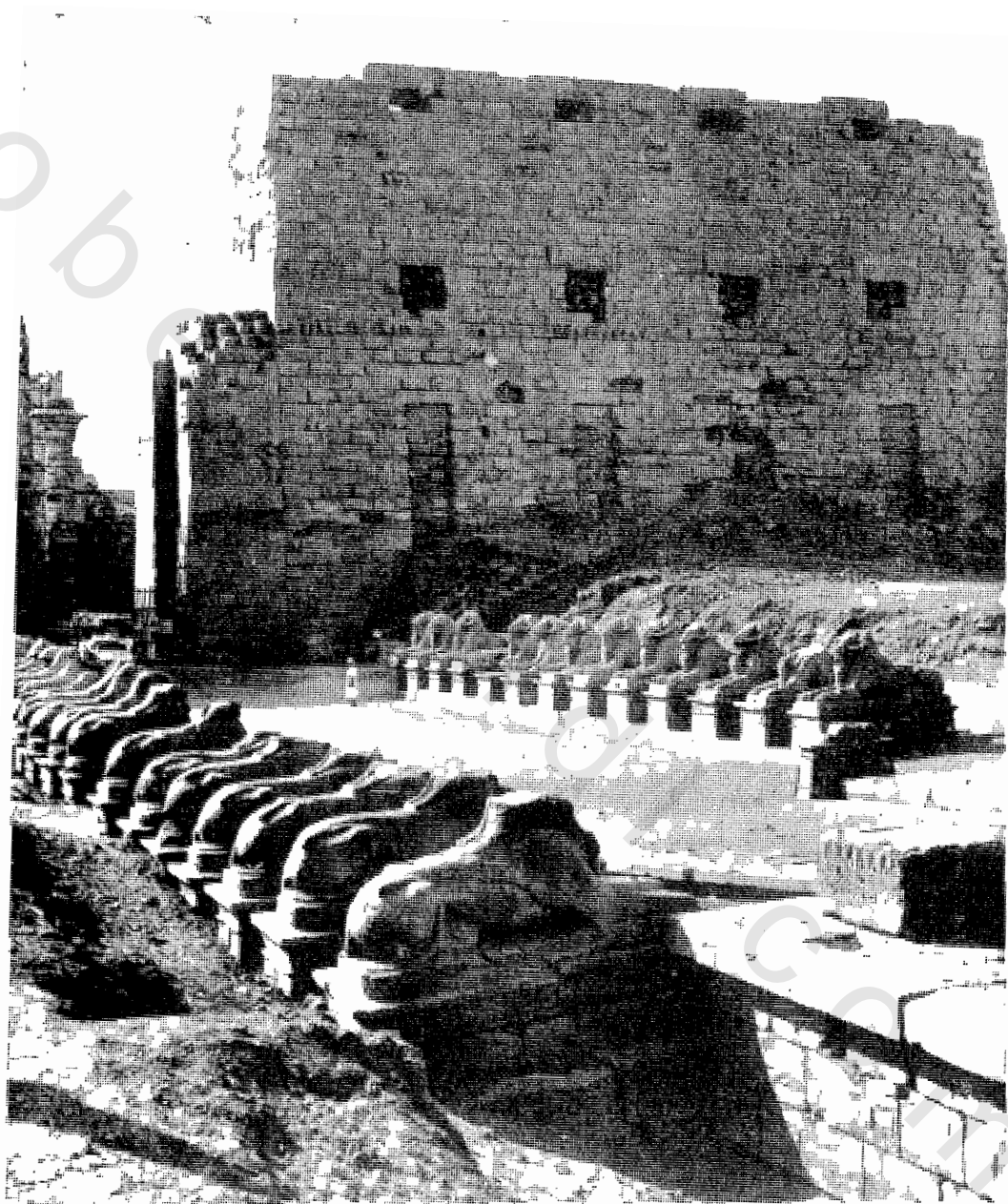




١٠ - غداء الأميرة



١١ - قاعة الأعمدة في الكرنك



١٢ - معبد امون في الكرنك

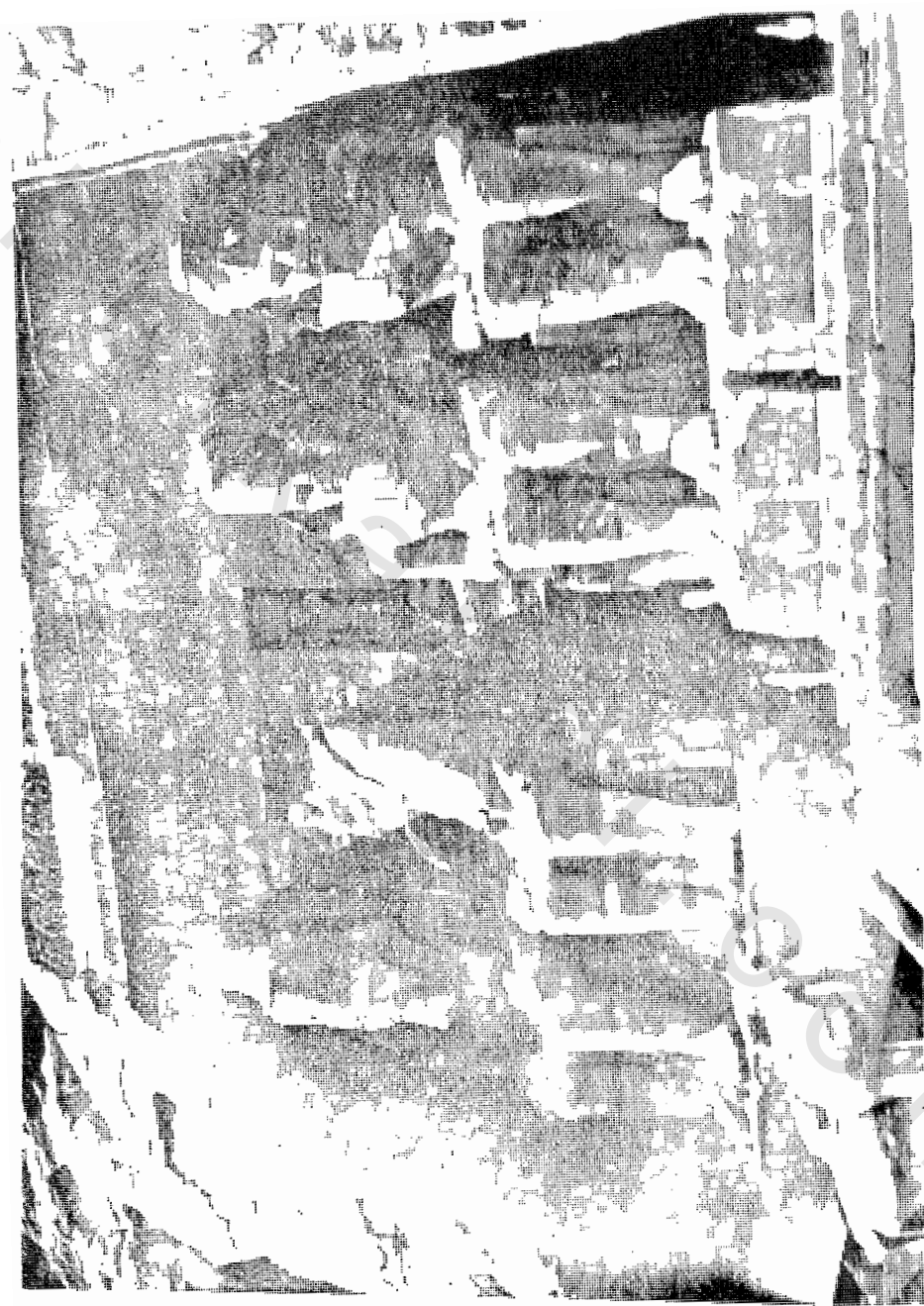




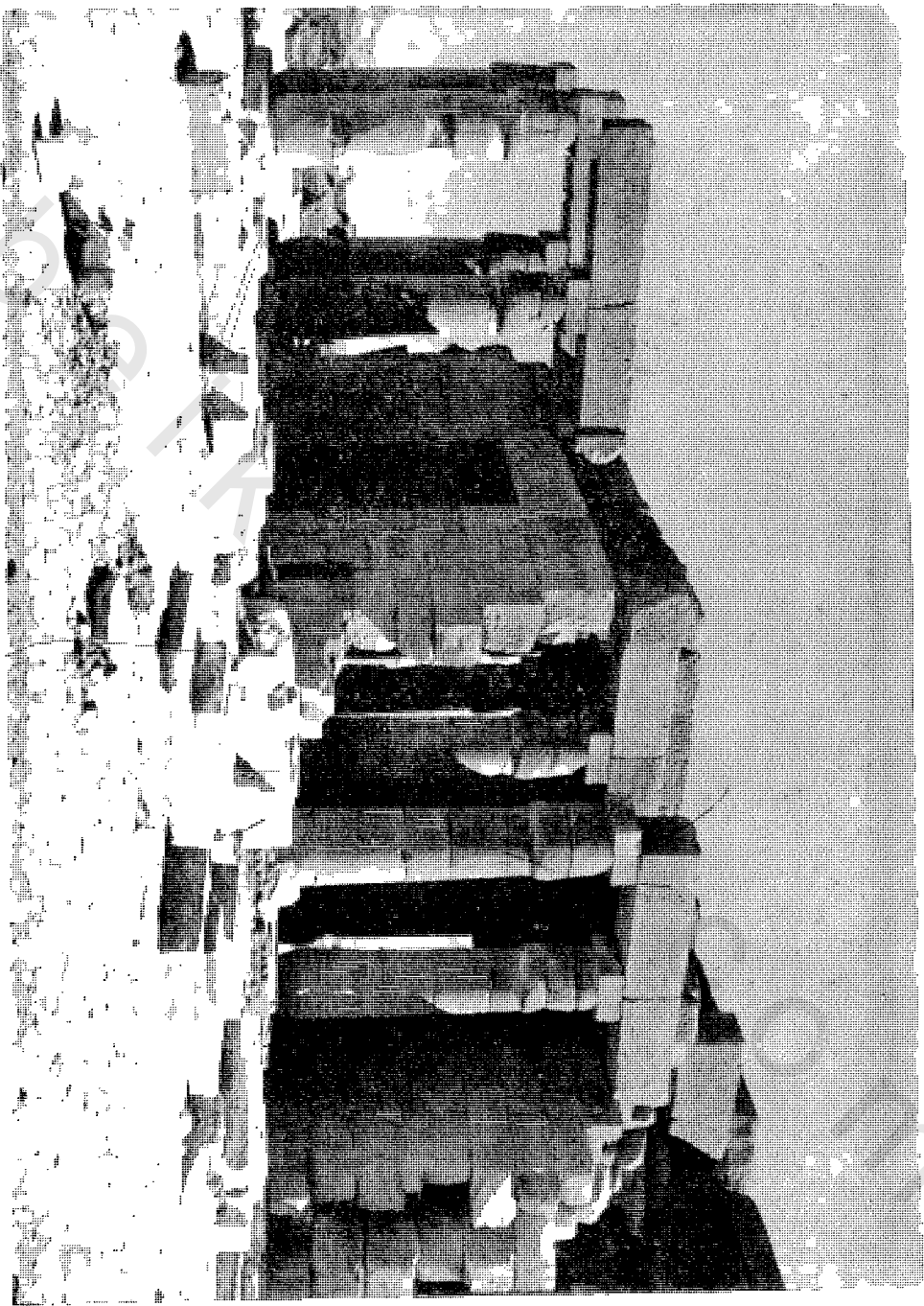
١٣ - سيتي الأول والالهة حاتور



١٤ - معبد سبتي الأول في أبيدوس



١٥ - التماثيل الجارية في معبد أبي سنبل . اللوحة التاسعة عشرة



١٦ - المبد المدفني لرعسمس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة

## الحياة الروحية

ان الطوائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكون الحصة الوحيدة التي اسهمت بها حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض العالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الأكثر اشراقاً ، نر بان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقد تركت أثراً لا يمحي في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

### اولاً - الافكار والوقائع الدينية

يعسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندما يصبح بالامكان التقصي عن هذه الديانة ، فستظهر لنا إذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم نقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزمًا بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن . ولكن بقي التقليد اميناً لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمنًا طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسسها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لما لها من ابهة وفضائل .

الديانة : السومريون  
والساميون

ولا اوضح في هذا المجال من المقارنة مع الديانات السامية . فهناك نقاط ثلاث لا شك فيها . فلشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تومز بالذات ، اي ادونيس عند الفينيقيين والسوريين . ولهم اله للزوبعة والعاصفة ، يتخذ عند الامم المذكورة اسم حداد . ولكن عبادة هذه الآلهة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغلغل

سامي، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون، المدعوون « غربيين »، لها من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقى دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبلوراً . وقد قبل كل الساميين المدعوين « شرقيين »، اعني ساميي بلاد اكد و اشور، الخضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي . ففي بابل الاكادية يتبع حورابي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسها ويقيم لها ذات الطقوس وفي الهياكل عينها ، لا بل يظهر نابونيد ، عشية الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تعبد لاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدى مدن بلاد الكلدان .

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على تكميم الموتى؛ عدم تكريم الموتى؛ عدم النظام في قبور اور . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالافكار المتعلقة بالموت، فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدية تحيّر المؤرخين .

ولم يمض بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية . فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيا ، من الادوات الخزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تابوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت مملوءة بالمواد الغذائية . ونرى العجلات والاسلحة التي يتخذونها للآلهة والعظمة كالخناجر والخوذ من الذهب الخالص ، وزناير الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، حتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لظهور عظمة السيد الميت ، الذي سيحيى حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجهل عنه كل شيء .

ولم يمتد قط على قبور كقبور اور تجربتنا الحقيقة — على قلة النقوش التي وجدت فيها — مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشهد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابلية او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيد مقارب ينسب الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقام في زمن الملوك الغز ( او السيت *Scythes* ) . ولكن نسبة للبعد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته على استئثارها ليستنتج وجود تأثير عراقي او غيره .

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ، فلا يمثل القبر امودجاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه في معطم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقيدين بالنصوص التي ، على ما فيها من تكتم ، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت إلهاً كما الحالة في مصر . وقد نعد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجية آلهة . وفي الوقت الذي تقلص فيه الحياة يغادر الجسد ظل او روح . وان لم يُعدْ لهذا الروح رسم ، وبصورة ثانوية مواد غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير وبهم دون راحة . لذا فان مصالح الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحة في ان يكون للميت ولد ، حتى ولو كان بالتبني : وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مريق الماء » ومنظم وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذاك هذا الروح نحو « الارض الكبيرة » « الارض التحتانية » « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « نزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه المملكة الجهنمية ، وعن شروط المكوث اللانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكبر العظماء انفسهم . ويطابق هذا الوصف الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغمش ، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تبيع لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتابعة . ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويهجع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد رفع ذروهم رأسهم قليلاً وارتاحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير وبشربون « ماء قراحاً » . ويققات العدد الاكبر من الاموات ، حتى وان اعتنى بهم الاحياء ، من القبار او من التراب المذوب .

ويقلق غيلغمش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلاً : « ايها الميت لن نعيد الحياة التي تبحت عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقد احتفظوا بها بين يدهم » . ومع هذا فهو يكتشف نبذة الصبي الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي يعود شاباً » والتي تكون مادة لمنهاج . ولكن تنتزعها منه اخيراً اقمى مثبتة بصورة قاطعة مصير الانسان الذي يدعو للشفقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير المحزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريين . واذ لا ينكشف اي افق مشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحياة الدنيا صفوة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى مروراً للكائن الزائل . وهذا التمديد في اوروك ولارسا كما عند الاشوريين والبابليين ، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحياة



خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بأفعال البر ، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن ترويد هذا الدعاء : « اني ارهب الوهيتك ، فامنحني حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ، ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تشيخان ! »

اتى هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق خوف وتقوى الحصر تتلوه من خلالها نفس العاطفة . ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى ، بل قد يستميج لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبررها مع هذا اي خطأ ارتكبه ، فتتصارع في نفسه عاطفتا الخوف والشكران لكل ما كان يمكن ان يصيبه وقد نجا منه . وهكذا يغدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة ، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفرع للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون الحاح ، ثواباً لان الخوف يحرضه على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً العذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريرون ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في تدارك وابعاد اذاهم . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حديثهم الاصيل نحو الانسان ، عرضة لانفعالات غضب يستحيل التكهن بوقت حصولها ومعرفة اسبابها . واذ يعسر على المؤمن التخفيف من حدتها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آثاماً محددة المعالم ومصنفة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ، نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادئ المعنوية . وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها ، فهناك آلهة سرية يجهل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضاها وعن غير قصد . وهكذا يغدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدئ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهله ! وليطمئن خاطر الإلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانة بلاد الرافدين الذي يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمية التي تتسلط احوالها على الانسان الاعزل . وفعلًا فسيمثل دوماً في زون (بانتيون) كثير التغيير آلهة الرعد والزوبعة والنار والانهار والجبال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى الموت لتعرف من بعد قيامة مجيدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويلاً الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا من ثم احياء مراحله ، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبيح لنا التجارب اليومية والسريعة معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سماء وارض وماء وعالم



سفلي ، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلهة الأخيرة بالإضافة الى آلهة السماء كالاله أنو والآلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الأكثر عظمتة : سن الآلهة - القمر ، شمس الآلهة - الشمس ، إشتار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانها ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الأساس « السماء » .

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لها . ويقر كل شخص ، مهما كانت منزلته ، بان له الها ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منها رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » « ربه » ، او اسم هذا الآلهة او ذاك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا... هو حصتي « ... خلقه » ، او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » « اعطف علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الآلهة ، الملاك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطوره . ولا ينسى المرء ان يستجدي حماية الآلهة بدعائه : « ليقيف الهي عن يميني ! ولتنتصب إلهي عن يساري ! وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ! » ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي ينتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لعاداته ومفاهيمه واحتياجاته ك مخلوق اجتماعي .

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان ، كأنه قاعدة مطلقة . ولا نجد قط اي اثر لمبدأ التعاويد ( *Fétichisme* ) . وقد نقي وتطور تطوراً عميقاً المذهب القائل إن النفس هي مصدر كل الامثال ( *Animisme* ) . وقد نلاقي بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوقيسم *Totémisme* ( قالت به بعض القبائل المتوحشة ، خاصة في اميركا الشمالية ، ويؤكد بان جسد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بتكريمه ) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها . وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادات الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالاً : فلاحيوانات مؤلهة ، ولا كائنات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور المجنح الذي يحمل وجهاً بشرياً الا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : فنرى إشتار ومعها اسد تجرّه او قملوه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان رافق الآلهة او حل محله ، القيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكلل التماثيل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضفت على الآلهة الحقيقية لا بل على الارواح الصالحة او

الشريرة مظهراً انسابياً بحتاً، واعتبرتهم من تم الميثولوجية مساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية، ماعدا الموت، فاسندت اليهم العواطف والاهواء، وتحدثت عن اسفارهم ومغامراتهم، وبطمتهم فئات فئات، فلكل اله زوجة او «السيدة» استولدها البنين والبنات: ومن البديهي ايضاً ان يحدد في الميثولوجية بعض الاختلافات، فان وشائج القربى تتغير، طبقاً للمكان وخاصة حسب الرمان، تبعاً لتقلبات واهواء يستحيل عالماً تفسيرها. وتُعرف إشتار بأنها ابنة سن من آنو، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لسا كأنها ابنة آو التي تصبح زوجة له. وتفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغييرات اللمة التي تطرأ على علم انساب كثير التخرج. وينشأحر الآلهة ويتحاربون، وهم يبادلون الرأي في اجتماعاتهم، وقد يندم بعضهم، ولكن لات ساعة مندم، بعد ان يكونوا قد خضعوا الصغط الآخرين، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكونا بكاء مريراً.

يستطيع الانسان ان يفسر ما يتحدى التفسير لاول وهلة. فارت الآلهة والدول التغييرات التي تطرأ على الدولة تعكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمي هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقوتها مع هذا مفعول ايجابي. ولكل مدينة اله او إلهة، وهي تعتبر نفسها ملكاً لها او له، كما تتحد معه او معها شبه اتحاد ذاتي؛ وتحفظ المدينة له - او لها - بافخر هداياها، عربون عبادتها، وتثق به - او بها - لتعيين ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كأنها فرضت عليه فرضاً من قبل الآلهة، او اقله اوحت له بها. وهكذا فان آنو هو، بالدرجة الاولى، اله اوروك، وأنليل رب نيبور، ونرغال معبود كوتا؛ وسن سيد أور، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيدار الاكادية.

ويظهر هذا المثل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مراراً الإلهة الواحدة. ولكن حتى في هذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصة، كعندما يوضحون مثلاً «إشتار مدينة اربيل» لتمييزها عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهذا الاسم كإشتار نينوى او إشتار اشور. ولا يعني غالباً هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار، او بوجه افضل، عن تفاعل ديني، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي. وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بأنه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بأنه اله حران، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين، عند منعطف الفرات: فكيف يتناسى المرء بان والد ابراهيم كان قد هاجر، كما تذكر التوراة، من اور الى حران؟ ومع هذا فان مثل هذا النزوح او ايجاد مراكز جديدة لا يمان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التعبير؛ فإشتار التي عُرفت في بلاد بابل بأنها إلهة الحب اساساً، غدت في بلاد آشورية الحرب. ولكن وان مالت ثارة لهذه الجهة وطوراً لتلك الناحية فقد عنت دوماً وبصورة التلازم هذين العنصرين.

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعب او بالاحرى مملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي أصبحت مركزاً سياسياً أكثر أهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، أصبح الإله الرئيسي لجميع الاشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غدا اله الدولة الاشورية الاول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغربية المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العنوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبدونها العاهل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للإله اشور ، واعتبروه حامي سلطانهم وملهم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالإله مردوك ، رب بابل ، وقد أصبح معبود الامبراطورية أيام حمورابي ، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وترافق هذه التغييرات السياسية تقلبات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجية وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هذا الإله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمغامع » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان أنو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له . قبل ان تحل محله : وقد طغى نجاحها على كل بلاد ما بين النهرين حتى أصبح اسمها مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهد المحورابي تروي لنا كيف تنازل اكابر الآلهة لصالح مردوك ، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » ، « الملك على العالم بأسره » . فغدا بل *Bêl* « السيد » . وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لآنليل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خمسين اسماً من اسماء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لابيه « إيا » اله اريدو . ولكن في وقت لاحق ، واستناداً الى نص هذا النشيد الاشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تخلت عنها او الهيكـل خضعت لآلهة اخرى ، فلا يعني هذا الامر بانها تنهاون في جهودها للبقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لازب لا تستمخ لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الإله كالانسان لمنزل له ولاسرته اعني الهيكل . وللهياكل كلها دون استثناء اسم يبتدئ في اللغة السومرية بمحرف ( اي E ) وباللغة الاكادية بمحرف « بيت » اي « البيت » . ففي بابل يملك الإله مردوك الـ « اي - ساغ - يل *E-Sag-il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي » الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى اي - تيمين - أن - كي E - Temen - an - ki اي « بيت اساس الارض والسماء » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكل انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرّس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلك ، وفي خارج المدينة ، يملك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يحلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلزم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بها الملوك بصورة فعلية وليس فقط ادارياً ومالياً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يمثّلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالتخازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنان والحدائق للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة للكتابة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الاله ، هو تغذيته وذلك بتقديم العبادات ورجال الكهنوت المال والاشربة التي تقررها الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهى وسط الاراهير وادخنة البخور المنقي وسيول من الروائح العطرية . وسمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ يومياً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يحب التنوع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنة وبرية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وتمروراً واثمار غنّب وتيناً ، وعسلأ ، وماء ، وجعة ، وخرأ وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها بابهة عظمى تتخللها تطوافات تشترك فيها الجماهير التي تواكب التماثيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أد كل يوم واجباتك لالهك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهاج والصلاة والسجود وهو يهبك الكنوز ، وتنجح كثيراً بواسطة الهك ... إذ ان الذبيحة تزيد في الحياة والصلاة تطهر من الاثم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهناك الرقاة والمنتحبون والمنشدون والسحرة والمنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفة كهنوتية . ونجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتتيم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يُمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة ، ولكن هل من ثقة في جديتها؟ رحتى هذه الصلاة أهما كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تضلنا الوثائق التي نعتمد عليها والتي لا تمت جميعها تقريبا إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمدنا عليها ، فانه لم يكن يتم اي امر بدون خير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهياكل التي كانت توصل دوماً في وجههم . فكلمة « الداخل » - الى الهيكل - كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبحة او التقدمة او استشارة عرافي الآلهة .

تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراعاة رجال الكهنوت لقاء أجر محدود . ووضعت الهياكل سحرتها وعرافها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفترقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونحوس ومحاطات دسة ، وشياطين ينشرون الاذى - « السبعة » - مجموعات السبعة - وينفذ اوامرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون نالفاً مصيبة ، حتى يغدو المرض شكلاً من اشكالها . واتقاء لشدهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيبة والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهياكل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من النضج بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالدات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المنقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يجرون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جوهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس » ، المطهر الآلهة الذي يسمح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

لا تقل العرافة شأنها واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصوبون ايضاً في هذا المجال الى التأكيد من ان الظروف ستكون سعيداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسعى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات المضرة التي تحيط

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر نقاوة او يستجدي عوناً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخطوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يُحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان تأفها .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتغدو الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل - وقد ارسلتها الآلهة دون شك - بمثابة انذار او نصح او أمر . ويراقبون حالات وحركات المعنيين والاشخاص الثالثين والحيوانات ، فزجر الطير وتموج الماء واللهيب يعطيان افادات لها مغزى ونفع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بمزجهم الزيت والماء ، ويفحصون خصوصاً فحوصاً دقيقة جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخيرة - اعني فحص الكبد - رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهاز بهذه الطريقة لمعرفة معرفة واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكثروا من صنع اكباد خزفية وحتى نحاسية استعملوها كآلات للمقابلة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مهما كانت دقيقة .

ان اعتبار بعض كبار الآلهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، علم التنجيم وتفوق العالم الفلكي وآلهة السماء الذي اقرته الشعوب منذ اقدم العصور ، شجعاً على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبئ عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف يخبئ تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهد لتدارك نتائجه او تخفيف وطأته جهد المستطاع . ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصير الانسان لهيئة الابراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والهزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والابوثة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استعداد الآلهة او غضبها ، وعن الممارك التي تنشب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديمة وعلمية ان يستكشفه كل شيء . وان جمع هذا المراقب الى علمه كفسر لا تفوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بامكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احد بانك مثل هذا العلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدون علماء التنجيم دون ملل او وهن في مخطوطات الهياكل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابجاثهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة السماوية مواد لا تحصى ، تحرر منها ، بوعي او بغير وعي ، علم الفلك الاول .

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبل الديانة المصرية . وحافظت معطيات ديانة  
 بلاد ما بين النهرين المستديّة  
 هياكل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات الهزلي ، يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ، ارادة ملحّة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لاجياء اشكال الحياة الدينيّة الاكثر قدماً مع معارضة كل تحويل قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال محتم ؛ وتعود آخر وثيقة ذات صبغة دينية – وتدل على ملاحظة فلكية – الى القرن السابع ق.م . اما الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « المجمع » الكهنوتي ، اضمحلالاً طبيعياً . وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة الخوف الذي اوحت اليهم به والذي كان ينسج بصورة اللزومية من فكرة العالم الالهي الذي صورته لهم . وبقيت المبادئ الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقة ضيقة وقد خلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحلأ للجميع ، كما اضعفها الاعتقاد بخطيئة مجرولة يرتكبها الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية قبل كل شيء ، اقله فيما يختص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفينا بمجموع السؤالات التي كان يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب الايماني الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي بحث عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمان طويل كانت حضارات عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولاً .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبل بدء عصرنا بقليل ، إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والري – وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة – اتساعاً زاهراً في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومية – ولم يكن لهم دون شك من الصفة الكلدانية إلا الاسم وبممارسة بعض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبة وصفات مبتذلة – منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا الصعيد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات الدقيقة التي جمعت دون ملل في هياكل بلاد ما بين النهرين

وهكذا فقد غدا لبعض المظاهر التي بُنيت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قوة فاعلية مستديمة .

### ثانياً - الاكتشافات الفكرية

احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصة بحضارة بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيها هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى عندما عملوا لمصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجواهر ، صفتهم كموظفين او خدما عند الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينشر الكثير منها بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية الاهمية مرت عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مها تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ، فان لمعظمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان للكثير منها الصفتان معاً .

الكتابة المسارية ان تعقيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تعقيد الكتابة المصرية ، وهذا ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألحنا اليها اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم باسبعية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين النهرين ، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسم استعمال الحرف كإداة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات ضمت بعضها الى بعض على الهوى ودون نظام . وقد نحد الشكل الاصلي الذي انبثقت عنه بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيها بعض العلماء يداً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها تمثل مركباً يعلوه شراع ، او برحاً للمراقبة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مساراً ذا رأس عريض ، كسبار البيطار . وكان الكاتب يرسم هذه العلامة بواسطة قصبه حدد رأسها بشكل منحن او مثلث الزوايا يفرزها في البدء غرزاً قوياً في الخرف ثم يسحبها مخففاً بصورة تصاعدية الضغط على احدى الزوايا . وتكون هذه المسامير « الجوانب » العلامات للكتابة المسارية . وقد تكون أفقية او عمودية او منحنية ، ومراراً صغيرة الحجم جداً ، تتشابه معاً عندما تعود الى جمع واحد . وقد رسمت اولاً على الخرف مما يسهل تفسير الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمان طويل سعاو الحفر العلامات المسارية على المعدن او الحجر ، فغدا من ثم ممكناً الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصلي ، كما حدث ذلك



في مصر . ولكن مع هذا استمروا على استعمال الخزف لسهولة الحفر عليه وكثرة وجوده . وكان يكفي ان يبقي الكاتب هذه المادة الخزفية رطبة قليلا ولدنة . وحفظ تجفيف ' صفايح الخزف في الشمس او شيئا الوثائق المكتوبة من اي تحريف او تزوير . وعالبا ما اعطوا هذه الصفايح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وصعوبة الكتابة المسمارية متأية عن كثرة عدد جموع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف . ونتجت هذه الصعوبة ايضا من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع تارة فكرة وطورا مقطعا صوتيا ، كما قد يدل ايضا على صفة ، ويختلف معناه ان وضع قبل جمع آخر او بعده .

تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغات .  
اللغتان السومرية والاكادية  
ويشعر المرء بحرجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين ، أي بعد التغاضي عن الاقطار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز - كي » في آسية الصغرى .

لقد حدد السومريون معالم الكتابة المسمارية . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوذاً . وبقيت وقتاً طويلاً تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغة ميتة ، مها كانت نواقصها ثابتة كعدم ليونتها وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياسي تقلبت لغة سامية الاصل ، متماز امتيازاً عظيماً بلبونة قواعد صرفها وبوضوحها وبمقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مها كانت دقيقة : أعني اللغة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية الا شكلاً من أشكالها . ولكن منذ البدء تبنى الكتاب الاكاديون جموع علامات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة ما فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوها القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جمع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدرب الدقيق والطويل ضربة لازب على كتبة المستقبل . وكان من ثم لازماً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتب ومستندات تدلهم على المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليها اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج مماثلة تقريباً لنتائج شيوع الطباعة والتعليم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على أقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمنع الامر منعاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف ، ونجحوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكماً فيما يختص باللغة المحكية .

اللسنة الأرامية تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وذاك التمسك المقصود بالقدم النجاح الهائل الذي لاقته في الألف الاول قبل المسيح لغة اخرى : اللغة الأرامية . وقد نجد اسباباً اخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللغة انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً . ولعب الاراميون دوراً تجارياً هاماً مما ساعد على انتشار لغتهم التي عدت والحالة هذه شبه لغة « عمومية » اخضعت لسلطانها رويداً رويداً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقة والتي لم تتجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لغة وطنية . ورافق انتشار الكتابة الارامية توسع اللغة الارامية ، واتخذت عن الفينيقيين أبجدية ابسط بكثير من الابجدية المسارية ، وكتبت بالخبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الخزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللغة الارامية للوثيقة التي سجلت بكاملها بالكتابة المسارية . واستخدم الملوك الاشوريون في قصورهم « كتبة على الرق » ، اعني للكتابة باللغة الارامية ، و « كتبة على اللوحات » اي للكتابة باللغة الاكادية . وغدت الارامية ، اثناء الحكم الفارسي ، لغة الادارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين العصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الخزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

المؤلفات الادبية قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس بصوصاً مختلفة المواضيع . فمنها ما هو قانوني : القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو اداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات الملك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها العاهل ، اخبار المدينة او الهيكل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شعري أو نفعة أدبية . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد ما بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فطة . ويحدد تفلتلاسر الاول نفسه قائلاً : « هار مشع يهر سناه المناطق الاربع ، شلة وهاجسة تهمين على البلد العدو كطر الزوبعة » . وهوذا اشورانيبال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوره وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعت حداً في اريافها لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، ولهتافات الغبطة ، وتركها مسرحاً لمحار الوحش والايئل وجميع اصناف الحيوانات البرية » . ولا تنقص هذه الامثلة الدائرة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تنتهي هذه التصاور بالغموض ، خاصة في المصوص الدينية ، التي تتجنى غالباً نحو السر . وبأكراً جداً ، ولربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حوراني ، بدأوا ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتابة احياناً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسج هذه الاساطير دون ان يخشوا تحريفاً او تحويراً . وتعد هذه الاساطير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

إلاشيد الميثولوجية الكبرى ستوقف هنا على شيدين من هذه الاشيد ، وهما مشهوران بصورة خاصة وعن استحقاق . والاول هو « اوما اليش » اي « عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً « نشيد الخلق » ، لانه يجبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضى الاولى . واول الامر تميز الماء العذب عن الماء المالح ، وعدا الواحد شفعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لها خادماً . ومن هذه الاوليات ولدت الآلهة ، زرجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة فيه انتصر احدهم - وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية - وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينة اوروك وملكها ، وهو انسان حقيقي ولكن آلهته الاسطورة . ونجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ، وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات الشائك الذي يؤمن بقوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاح قد مات . ويكفي هذا المختصر « المفيد » ليوحى لنا بالصدى الذي لاقتته هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من العيب دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار المقارنة التي تفرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل من سفر التكوين او من الاوديسه *Odysée* او من اسطورة هرقل .

منذ عهد حوراني انشأت بعض الهياكل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الخزف ، حسب مبدأ استعمل ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل أيضاً في قصورهم ، غير ان ايّاً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً او مثابة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة » . وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول او أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يختتم رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى مثله في بورسيبا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات او نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانتخب وارسلها الي » . واستطاع العلماء الانكليزي ان يكتشفوا في خرائب نينوى ألوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبذونه لكل عمل حققه العقل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثرأ مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالحيرات المادية فهي تغني المرء دينياً وعلمياً . ولم يتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المدى الذي وصل اليه بأنه اخذ يسبح علمانياً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحذر على اي ان يسخر منها .

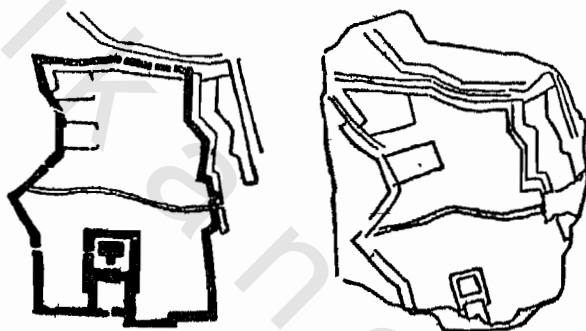
العالم : الطب وعلم الفلك  
رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان لم تتعد هذه وتلك المهذ فاتها مع هذا ذات اثر وقيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله . لذا لم يلس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرماد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر ، اذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية للبحث عن هذه المواد واستعمالها . وسأقت مراقبة طوابع الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واقفاها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمات ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية ، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال . ولكن غداً لازماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة . واخيراً ، وعلى اكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م . عرفوا بأن عدد ايام ميتين وخمسة وثلاثين شهراً قريبا يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً . وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً . ولكن متى تجري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبدأ وقت الزيادة بصورة مستديمة الا اثناء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور يعد تسعة عشر عاماً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علماء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين - وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين  
فرض استعمال نتائج علم الفلك هذا معلومات رياضية جمة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستينياً » كاملاً وفتق معه فيما بعد نظام عشري . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقة لا مثيل لها في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .



الشكل ١١ - رسم نيبور

١ - على لوحة مسارية ؛ ٢ - حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لما فيه من توازن داخلي ، بنظامنا المتري - وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحياة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تنشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول - ومن تربيع احداها كونوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكييل للاجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهيلاً للحساب وضعوا جداول معينة . وكان هناك نماذج من اعمال حسابية او هندسية وضعوا لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

قاسوا بدقة المسافات والطرق ، ووضعوا الرسوم الهندسية للمباني والقنوات عارم الطبيعة وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نيبور دقة رسومهم . ووصلت البنا خريطة عن العالم ، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين في وسط الارض . ويمتد حوالها المحيط او « النهر المر » ، وعلى مسافة ابعد تنبسط اراض اخرى ، ارض الشال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على شيء كثير . ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة . ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدأ الذي هيمن على هذا التصنيف ، لا بل يبدو انه اعتمد على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة واة التمر او اللرد . ولكن هناك جهد واضح للاتيان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلي ، والتي يمكن استعمالها كتوابل الح .

العلم والسحر في العمون  
ذهابا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء  
اولى خطواتها .

وكان الحديد اولاً مادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجدونه صالحاً للاستعمال ، خاصة الذي يمت اصلاً الى النيارك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلي ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه . ولكن ، حوالي آخر الالف الثاني ، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن . واتصل بهم هذا الاسلوب من اوروبة ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، والى كافة اقطار الشرق ، الشعوب التي بدأت فقد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد الرافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، فغدا استعمال الحديد فيها امراً عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود الى عصر اشد قدماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص يفوقه قدماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد اراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعري وثيقة مع السحر والعرافة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ اقله مثل هذا الحذر : اذ لا يحذر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

هل نُدخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها الحقوق : العقود سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نعيد عن الطريق السوي ان اعتبرناها ضمن أي من هذه المجالات ، أو ضمن مجالات اخرى ايضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها اكثر من مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح، مهما توغلنا في القِديم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور، وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالعقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي عمل من هذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في مختلف الميادين ؛ وقد اكسبت هذه الضرورة الاعمال المحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية . ولم تتعثر هذه العقود بنظام مفرط من القيود الشكلية . ولكن حوت هذه القيود ، مع التحديد الواضح للفرقاء وللموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المنوي اجراؤه كعمل قانوني تحليلاً دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، اكثر وقعاً القوانين : قانون حمورابي في النفس ايضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددها : ففي سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنّها بيلالاما ، احد ملوك اشنونا ؛ كما أشير سنة ١٩٥٢ الى شرعة أور-نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه السنن هي دون قانون حمورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأثراً جزئياً عن المسلة العظمى التي عرفتنا بهذه الشرائع . ويدعو تاريخ هذه المسلة الى العجب افحوا الى سنة ١١٧٥ ق.م. ساقها شوتروكناخونته ملك سوزة ، كجزء من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه الحفريات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى العجب ايضاً هذه المسلة بحد ذاتها : وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الاسود الصلب مخروطية الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٥،٢ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك واقفاً في وضع المتعبد امام شمس ، اله الشمس . والعدالة ايضاً ، تدلنا عليه شرارات تقدح من كتفيه . وتغطي كامل وجه النصب رموز مسمارية صنعت على شكل عمد ، أتى الفاتحون على بعضها بالمطرقة ، كما طرق ايضاً القرص الشمسي الذي كان يعلو هام الاله ! ويعد النص نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا النصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزة ايضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الادنى . ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واث من ثم في قوانين شعوب غريبة عن امبراطورية حورابي .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون نابوليون . وتسري هذه المقارنة دون شك ان اعتبرنا انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطأ فيما يختص بمفهوم النص وروحه . فبعد استهلال ، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوي رائعة ، يعلن « محاكمات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حورابي ، « ملك الحق الذي وهبه شمس العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تتحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بها . وان نحن اميننا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كمواد قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال وغموض . وان نحن لاحطنا ترتيباً سببياً في تصنيفها ، فاننا نعجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراسة تسير لنا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نلمس دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبت استمرار الاسرة بواسطة الولد ، تأمين الملكية مهما اتخذت من الاشكال الح ، ولكن نلاحظ ايضاً امتزاج مبادئ تختلف لابل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذاك تبعاً لمركز الصحة الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث « كيل » فضة <sup>(١)</sup> الى من دونه رتبة وحدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الادلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لابل يلجأون في بعض الحالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله - النهر » اعني الفرات من اتهم باستعمال السحر او المرأة المتهمه بالزنى . ونلمس بكل سهولة من خلال هذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية - وليس قوانين - لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي : وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لذلك التاريخ في وسط الامبراطورية ، ثم قررت الارادة الملكية تعميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ - يعادل الكيل ٥٠٥ غرامات من الفضة .



وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد بطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحمورابي لا يزال حياً؟ اذ نرى اكثر من لوحة، فيما يختص بالسقود، لا تنقيد بنصوص هذا القانون، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتعاقدين قد احتفظتا بقوة اشد من الاوامر الملكية.

وتظهر لنا عوامل ماثلة قوانين بلاد الرافدين الاخرى، التي يرتقي بعض منها الى زمن اشد قدماً. وتعتبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي. وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني، ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون.

وتفرض ملاحظة ماثلة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما حدود الجهد الفكري بين النهرين العقلية: فهي لم تتعد حدود التجربة والعمل. لقد أجاز علماء بلاد الرافدين المراقبة الدقيقة، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضيق. وهم قد صنفوها وقابلوها بعضها بعض. ولكنهم لم يستنتجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد، ولم يسعوا الا لمعرفة اسباب ما لاحظوه.

حتى ان الرياضيات نفسها، وهي علم نظري في الدرجة الاولى، اتخذت معهم مجرى غير مجراها: لقد استوقفهم المسائل الرياضية، وأشاروا الى الطرق الواجب اتباعها لايجاد حل لها. وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح، ولكنهم لم يعللوا ذلك قط علمياً ولم يحلوه، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح، وذلك دون شك بعد ان تلمسوا الحل مرة بعد مرة او اجرؤا التجارب المتعددة. وينطبق هذا القول على مختلف مجالات معارفهم. وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية مجتة - حتى انها لم تصبح تجريبية، مع ان المبدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار - ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي.

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحي، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان. لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق: وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب.

وننتج المجمود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها. وحيث ان المعرفة هي هبة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها، باكرأ جداً، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطقوس الدينية. لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمها الى الغير، ومن العبث من ثم ان يطمع الى زيادة شيء عليها؛ وكما هو الحال فيما يختص بالعقائد والاعمال الدينية، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تبعاً، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل.

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا التردد المستمر ، وهذا الخنوع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفقتهم مخترعين . فهم وقفوا أنفسهم على جمع تراث فكري وصيائمه جهد المستطاع . ولجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقاً في مكتبة قصره بنينوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو خلق آفاق جديدة اوسع مدى ، ولكن يعد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بمجد ذاته . واعتُبرت بابل في عهد حمورابي مثلاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حققه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً جداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث بان ما نقله وجمعه كتبة حمورابي يعود الى ماضٍ سحيق ، ليس فقط من حيث الاصل بل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

## الفصل الرابع

### الأثار الفنية

لن يعجب احد اذا وجد بان فن بلاد الرافدين قد ساه ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الديني والحدث الملكي ، ويرجع الاول كثيراً على الثاني اذ يتغلغل فيه ويكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئي اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للبدل القائل « الفن للفن » اذ يقتضي بالدرجة الاولى ان يستعدي المرء نعم الآلهة باظهاره تعبده لهم . ولا يتنكر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيها تقادهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذ لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخري فن مستقل - حتى ان قبور اور « الملكية » مدينة بقيمتها الفنية لااثاثها ، الذي هو اثاث ارضي ولا تهم تاريخ فن العمارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والقبة باكرأ جداً - فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لا بل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بتشيدها لحى سكانها وحراستهم ومجدهم وسرورهم .

مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجال ، يرغب المرء مع هذا المدن والحصون ان يتمثل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتنضيد المساكن المتتالية في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يميزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نجده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقراض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثناءها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعي بأن يأتي الاشوريون في هذا المجال بتحسينات ملموسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب مهم الرئيسي بشكل لم تعرفه اي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سموا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وسوّطوا بالأسوار قصور ملوكهم . ووزت عنهم هذه الاساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، إعجاب المسافرين اليونان :

وكان للمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة تتشابك دون أي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الآشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوها وأقاموا فيها الحاميات ، كتل برسيب ( وتعرف اليوم بتل الأحمر ) على منعطف الفرات ، بل أيضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة آشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون آشور : ارضة من الحجر والأجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تملأها المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخل والخارج يبلغ ارتفاعها نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً ، أبراج ثالثة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر الخ .

ويزداد التقدم وضوحاً عندما ينشئ الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرسا ناد اشهر مثل على ذلك في قصر شيدى سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور - شروكين اي « حائط سرجون » . وقد حل هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تطهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع وقائم الزوايا تقريباً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشيخ على اساس من الحجر حائط من اللبن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً ، ونجد خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من العرصات والغرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة ( الشكل ١٣ صفحة ١٩١ )

ومهما بدت خرسا باد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذ نصر ، وهي أيضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريباً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تعززها الابراج . وعلاوة على هذا كان يحدد سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجون اليها بأبواب ضخمة مزينة ومتينة ، أهمها اليوم باب إشتار ( الشكل ١٤ صفحة ١٩٧ ) لانه حفظ بحالة احسن من سواه .

وفي كل ناحية شيدت البنايات العظيمة كاهياكل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت بحد ذاتها قلاعاً تستطيع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من أبراج ذات شرافات ومرام .

واستنفذ هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ اهلكت دور - شروكين ، مما يفسر لنا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمت الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابليون على اشور ونيوى ودمروهما وجعلوها طعمة لليران . ووقعت بابل بدورها في قبضة الغازي الفارسي ، وتقترن اسطورة بلشاصر « مناتقل وفرسين » باسطورة كومة حطب سردانابال . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حد سيطرت سطوة الامبراطرة



الشكل ١٢ - مدينة اشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح  
ب ، قصر ؛ ت ١ ، بيت اكينو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله  
اشور الريفي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة هياكل ويملك احدها زقوراتين ؛  
ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ،  
الزقورات الكبرى كرت في اول الامر لأنيل ثم لأشور .

الاشوريين على الخيلة . وسيقتبس فن  
اقامة الحصون عند اليونان الكثير  
من مثيله الذي ازدهر في حوضي  
دجلة والفرات .

ويسري هذا التأكيد ايضاً على  
فن تشييد المدن وقد فرض السيد  
رسماً منسقاً للمدن التي شيدها أو  
جدها ، اذ ان فن بناء المربعات  
المهندسي هو من وضع بلاد ما بين  
النهرين الشرقية : ولم يحدد  
هيبوداموس رجل ميله *Milet* ،  
عندما قرر تصاميم بيره *Pirée* في  
القرن الخامس ، الا في نقل هذا الفن  
للمرة الاولى الى اوروبه . وقد اعطى  
الاشوريون الرسم والمثال للأعمال  
الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير .  
وجلب سحاريب الى نينوى  
مياه الجبال بواسطة قناة حملها  
فوق واد « جسر من الحجارة  
البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ،  
وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقاً ، غالب  
الاحيان ، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهياكل .  
وقد بذل البنّاؤون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية اكبر ، كما غدت ملاحظات علماء  
الآثار اكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيبهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والملكي  
فاقت دون شك عظمة واهية كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعد على استمراره  
ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

استعمال الخرف

وتخلو بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً ، لذا غدا لزماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخيم ان يعتمد الى الحزف ، ويصنع منه خاصة لبناً يخففها في الشمس ويكدسها اكداً أفقية تلتحم بعضها الى بعض بواسطة رقع من القصب او القش او الزفت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية الا بصورة استثنائية في الامكنة المعرضة الى ميساه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنعها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية ، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املاها الوحي ، تحدثت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسعى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيده او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والاكاديون على جلبها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتفوا بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء اي تجدد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً : لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيد الملوك العطاء على اقل تقدير قصرهم وهياكل عدة ، وهذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور - شروكين .

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة  
النتائج  
حق عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات . وكان على سطحها المنحني ، والذي يغطيه ان دعت الحاجة الزفت او الآجر المشوي ، ان يوجه الماء نحو بواليع اعدت في هيكل هذه الكوم . ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدت يكفي القول ان سطح قصر سرجون في خرساباد الذي يغطي مساحة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولاً يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزماً ان تبني سميكة جداً . وهي تضيق كلما اتجه المرء صعداً من الاساس الى القمة . واندمجت النوافذ تقريباً ، الا - لربما - عند السقف اذ ارادوا تقليل ، جهد المستطاع ، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة . ووجب على الابواب ، وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكانت لزماً ايضاً ان تفتتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من العرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا يتأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذ امتدت على مسافة طويلة - وكان من الخطر ان تتوالى الطباق ولم يجرؤ احد حقاً على هذه المغامرة ، حتى في الزقورات - ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفل ، حفراً على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكرأ جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتبني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذلك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحة بمربعات الفسيفساء او الأجر المشوي الطلي بالطين بشكل عادي او نافر ؟ ولجأوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الاشوريين ، باسنادهم اليها نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت . واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيم داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلاً ؛ والحق يقال ان هذه العتمة اللطيفة التي تدعها صفاقة الحيطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذاك الاقليم .

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في إيجاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي السقف ودعمه كبير أهمية : وحالت كمية من الزيت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا للمباني الصغيرة ، كالبيوت مثلاً ، نظام القنب . وعرفوا ايضاً نظام العقد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعثروا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المباني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، إن دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعينين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شجرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، مما اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمل الأجر لاقامة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الأجر المشوي استحال على هذه العمد ان تصبح متينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعيق الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو ، وذلك ببذل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحى قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجمالية بوجود سطوة تفوق قدرة الاشخاص العاديين .

الهيكل ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني الوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحد تماثلي الملك « غوديا المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيط بالهيكل الكلاسيكي سور له ابراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب للأشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثر عدد بيوت العبادة بالمعنى الحضري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة اخرى استضافتها الإلهة الوحيدة او الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع هذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد في اقصاها الغرفة الالهية السرية بمحصر المعنى حيث لا يدخل الا الكهنة والملوك وحيث يرتفع تماثيل الإلهة .

البرج ذو الطبقات تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى روايا سورها او على مقربة منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين : الزقورات ( Ziqqourat ) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومع الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبنى ، نراه دوماً « عالياً » - وهذا معنى كلمة الزقورات الاصيلي - تقل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هذا البناء معروفة : سطوح تعلو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض سلالم او درابزونات . وان ارادوا اعداد قاعات فيها فلا يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، ويقومون لها ابواباً تطل على الاعمدة الجانبية التي تتوسط الاجزاء ؛ اذ وجب الامتناع عن اجراء اي ثغرة في جسم البناء الاساسي وذلك لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل : فهو سبعة ، حسب احد النصوص ، لا « اي - تيمين - أن كي E - temen - an - ki » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفع بالقرب من ال « اي - ساغ - ايل E - sag - il » ، اعني « البيت ذو الرأس العالي » ، او هيكل مردوك في بابل ؛ بينما امصل هيرودوتس هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابة الاساس ، ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع اخرى ، بينما لا يبلغ الا الاربعة او الخمسة على بعض النقوش . واختلفت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليلاً عن التسعين متراً طولاً وعرضاً وارتفاعاً ال « اي - تيمين - أن كي » ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرساباد التي لا تزال باقية سطوحه الثلاث السفلى ؛ وهي لا تتعدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .



وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، وبحول عدد السطوح الذي يتبدل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السيارة التي عرفها البابليون ، وخصصوا لكل منها طبقة طلوا كلاً منها بلون مختلف . وذكر هيرودوتس بأنه كان يوجد في القمة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية ، ومحابه طاولة من الذهب » . وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء » . ويرغم سترابون بأن سكان بابل اعتبروا الآي - تيمين - أن - كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي ماذهب منهم استعملوا الرقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائر احتياري أي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن فانتفاء التفسير الاكيد فلا يغرن عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثري الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثيين قبل عهد اوغسطس بقرن ، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تهم اساطير هذه الانقاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي اوحدها الاهرام الكبرى او تماثيل ممنون الضخمة . ولكن تظهر الدهشة في تعابير هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأتيها . وتحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيدته حبروت بني آدم الذين توخوا « تخليد اسمهم » والحوول دون تشلتهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد الساء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله نانو في بوريبي : اذ ان كمية التراب المنهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

المملوك والمبابي الدينية  
ساعد الملوك بيدهم لتشيد الهياكل والابرار ذوات الطبقات . وقد وجدوا نصاً مسامياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني : « كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الآجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى بمائلة ، فاشتغلوا بالدوارة والمسطرة والجل والمنكاش والمر ، واوزوا الى رسمهم او نقشهم وهم يعملون على رأسهم قفة مملوءة آجرأ . وكانوا يضعون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكر الاحياء القادمة بعزمهم الخير . وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت واثق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاءه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم بأشد اللعنات ، اذ غدا لزاماً ان يستدر عطف الآلهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسة ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او تقديم

الذبايح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في أقدم القصور التي سمحت أعمال التنقيب بدراستها ، كقصور اشنونا في بلاد أكتاد التي ترقى الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حورابي . ونجد في الفسحة حيث ارتفع قصر سرجون الثاني ، الذي 'شيد في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب من الزقورات ؛ وقد اعتقد المنقبون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر ، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكلاً آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هذه بمعاشرة الآلهة المباشرة .

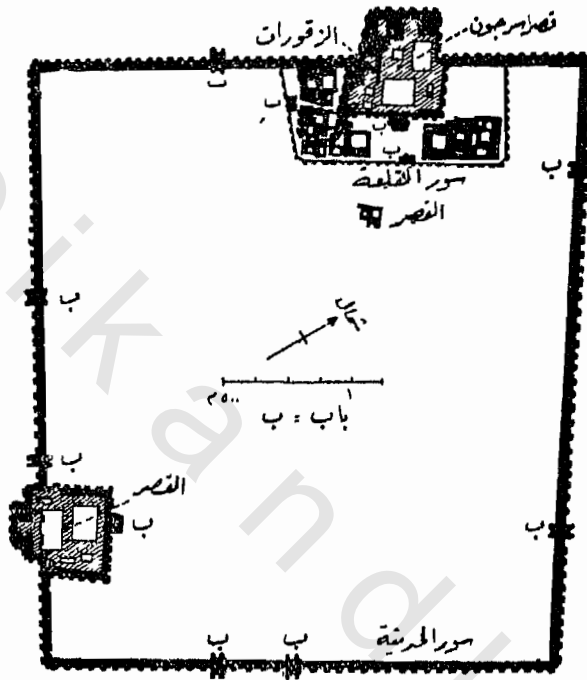
ان احدث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافدين ، اكتشاف ماري ،  
القصر ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصفاً احصوا فيها ٢٦٠ غرفة ، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة للكتابة ، والمحالب ، والمجان ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يغتصب دون شك قصر سرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قرنت تقريباً . وبعد ان هجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينة في الشمال الغربي . وبسبب نتوئه نحو الخارج غدا كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

واذا اتجه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب تمتد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبها مئة متر ؛ وتعد هذه الباحة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم ؛ ومن حوالها تظهر ابواب مستودعات المؤن المختلفة الانواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة ، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات : قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمه السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، وبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً ، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد اكثر من مئتي غرفة تشرف بغية الهواء والنور على اكثر من عشرين باحة ، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

مع الاهتمام بغن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يغربن عن البال الجنائن  
سعيهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل برسيب

الاشوري الريفي ( من القرن التاسع الى القرن السابع ) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص المياه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تعملو القنوات .  
لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه



الشكل ١٣

دور شروكين ( جدار سرجون ) حرس ااد اليوم  
السور والمباني الرئيسية للمدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر  
القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احلام سكان هذه المناطق التي تقرب السبابس ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة . وكان يلزمهم حداثي يحوار الهياكل ليُسكنوا الآلهة في « بيت يفرح القلب » ؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الاشجار على طبقات الزقورات ؛ وعلى كل حال كان لمعابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليها الاله في بعض المواسم . وغدا ضرورياً ايضاً ايجاد بساتين على اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نفرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك ببوخذنصر اعدھا لزوجھ التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميديا حيث كانت قد ترعرعت .

ان فن النقش ، ولو ادغموه غالباً في هندسة البناء ، بقي لها الاوصاف العمومية لفن النقش الخادم والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيدها غنى وجالا . وفي هذا المجال ازداد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن للزخرفة فقط وقد - والتقدير هذا في غاية الدقة - لم يقصد هذا الهدف . وعلى كل قصدوا من اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيان بعض النقوش وقد دفنوها في الارض . لذا لم يكن الجمال المحرك لتلك الزعة الاولى ، بل وجب ايجاد السبب في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص ما ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع - ولا شك في مكان مقدس - حتى تحرسه الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحة والعبادة والتقدمة ، والمعركة المظفرة او القنص الموفق احياء ذكرى هذه الافعال او تأمين استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كانت نتيجة الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الادعية والصلوات ، لا بسل غدا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيق مدى تطبيقها متفاوت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام المومياء ، كما لم يقدم جدرانها ليصوروا عليها رسوماً تحيي للميت المؤله افراح الحياة الارضية والثمار الحتمية للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهة في الهيكل ؛ واستمرت ايضاً النقوش التي غدا وجودها في القصور سبب دعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان خف عددها .

لا يعجب أحد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهده القديم ، مقوماته لشروط معينة .

ولم يهتم المتفنن لظهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل المرأة الا نادراً ، ولم يتبع مبدأ العري الا نادراً جداً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الثياب التي سعوا جردهم لظهارها بدقة ؛ ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلهموا شكلها دون شك من جلد الخروف وجزته ؛ ثم جبة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى الارض ، ولكن اعدت فيها ثغرة للرجلين . اما الذراعان فكانتا مطويتين عادة دون ان تتحركا وقد لصقنا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ اتحدت اتحاداً كلياً بكثرة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح أكثر فأكثر باستعمالهم حواحب اصطباعية من الزيت وغيونا من الحجر الملون ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثره مسحة من السويداء ، ان لم يكن من الحرن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغدا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً أقوى وأكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتنافى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والتأثيل : فجمجمة هذه الاخيرة تتساوى طولاً وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بهص الحقائق المتفق عليها وآخرها - وهي التي تثير اشد استغراب - يؤكد بأن هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان هلى النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلحوا عليه لاطهار هذا الفن : وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الاشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، ومراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبررها على شكل يوحى بفكرة العمق . وعندما نقش المتفنن الانسان خضع لمبادئ تقرب من مبادئ النقش المصري . ولم ير الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللأشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين والحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا ايضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكتفين وأعلى صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكان ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخوا الابقاء على إظهار الدراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً ايضاً الى هذا المبدأ لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغميش بشكل مقابل .

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على شروطه التقنية اشغال عظمية الحجم : وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتعد هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المضمار هو الثيران الهائلة المنحثة ذات الوجه البشري في خرساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، ووزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً : واذا وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد اغودجا يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١٤٥٨م عن طول قامته الانسان العادية وصفوا هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ؛ وقد تأصلت هنا عادات تبناها الغير مع انه كان اكثر غنى في المواد الاولى . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن عدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . وفعلًا تحمل الثيران المجنحة ، وهي ارواح حاية ، التاج دا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تفيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا نجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلًا منطقيًا ، كما تحقق لنا ذلك . ولكن مقدرة المتفان التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دومًا على اكل وجهه . ولكن باكرًا جدًا ينتصر النقاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى ما يجب عليه ان يراه ويعبر عنه كما يريد ان يراه الغير ، ويهيمن دومًا عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه وتخيلته .

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في العهود القديمة . وقد عرفت فن صنع التماثيل الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمة عدة : وهي لم تكتسبها لجمالها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكاد القديمة .

ولا نجد الا عدداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تماثيل عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامها تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه - والتمثال فارغ الجوف - على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهية والخصب الذي نجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الحارسة ، لا بل تماثيل للثور ذي الرأس البشري - وهو محتو بهدوء - يكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعتبر نظراته عن الرصاة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكبش والأبقار الوحشية والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخلو هذه التماثيل من ثقوب اعدت لتصبح مستقرًا لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلد الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أما تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعان بصورة تسمح لليدين بأن تلتقي على الصدر ، أو لاحدهما ان تستقر امام الفم : وهذه هي علامات الصلاة والعبادة اننا دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا ان يؤمنوا بحضورهم الى الابد في الهياكل ويظهروا للإلهة تقواهم ، وخضوعهم لاوامرها . وكيلاً يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً ما يحفرونه على احد اجزاء التماثيل الملصقة .

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولاً « قِيم » قصر ماري، ايل - ايل . وهو قيم ماري ، عوديا منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلال ولا يرتدي الا قيصاً من صوف . وتلتقي يده امام وسطه العاري . ولم يمس رأسه الذي يحوي كل العناصر التي تفرضها العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينا خلق شعر الجمجمة والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاخرة ، تساعدنا على ذلك شفتان يعلوها شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة، التي عثر عليها في تلو، حيث ارتفعت لاغاش القديمة. ونعرف اكثر من ثلاثين تماثلاً من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل الاجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تماثلاً في متحف اللوفر وقد عثر عليها منقوبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقش كل هذه التماثيل في حجر رلب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هذا يدل نقشها على مهارة لا غبار عليها . وتقارح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التمثال «الضخم» ، الذي يظهر الملك جالساً ، نحو ١,٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنيه ، فتارة في عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى النموذج آخر منها « عريض الكتفين » لنشك ولو قليلاً في حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والذقن الطويلة المعكوفة . . وتكشف لنا هذه الاوصاف عن مزايا الشخص النفسانية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن مما يسترعي الانتباه هو الصفة الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دوماً يديه ، ان ظهر واقفاً أو جالساً ، حاسر الرأس او معتمراً نوعاً من العمامة . ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويغطي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه حتى المعصم . ونجد في نفس الامكنة الثنايا ذاتها وان قل عددها ولطف طيها . ولكن في كل النماذج وتحت قطعة القماش السميك ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص قط اي مثال شيء من الاناقة والكياسة . كما تظهر لنا البساطة بصورة مؤثرة ، مها تجسمت وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي وينتظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط بني البشر .

النقش البارز Bas - relief  
لم يتوصل قط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجة كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه مع هذا ترك المركز الاول في فن النقش الى ما دعوه النقش البارز .

غدا لنرى النقش البارز عند الملوك الاشوريين خطوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكرأ

جداً على لوائح مصفرة ، او حصى ( الكودوروس Koudourrous ) ، او اوان او نصب . وكانت بلادهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جدران الآجر ، خاصة جوانب قصورهم . وت فوق المساحة المنقوشة على هذا المضمار في قصر سرحون الثاني في خرساباد ستة آلاف متر مربع .

ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثل هناك خاصة الارواح الخيرة التي يحول وجودها دون دخول الارواح الشريرة . وغدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخيالية مغزى رمزي . ونُقش هناك اغلب الاحيان بوعان من النقوش . الاول البطل غيلغميش الذي ينتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الايسر ، بينما تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوفاً يعد اصلاً للحسام ، والثاني الثور المجنح ذو الرأس البشري الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيّب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

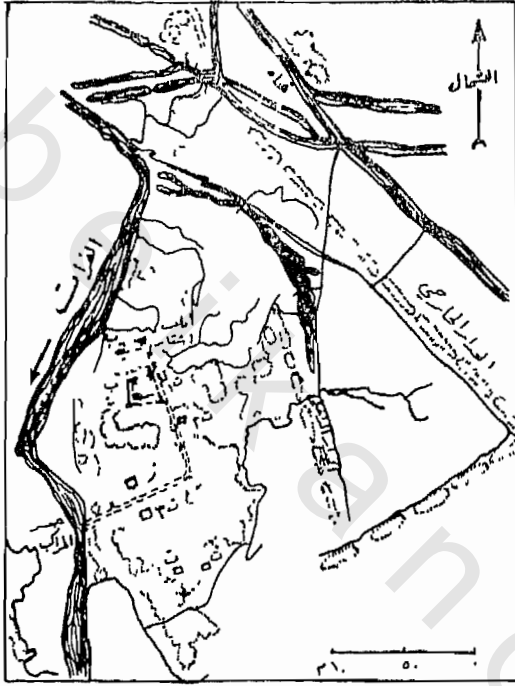
ووجدت النقوش ايضاً في الداخل على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقلة وسوء الاضاءة . وهي تمثل ارواحاً مجنحة خيالية برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثمرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستدعية والحالة هذه على البلاد بركات الحصب . ونقش ايضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيظهر الملك بكل عظمة . وهناك ايضاً نقوش فنص تظهر الملك وهو يخرق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يمسكه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقد يمثلون الملك ايضاً وهو واقف على عربته يحارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جعد شعر رأسه ولحيته بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والماعم والحصار والهجوم ، كما تعددت ايضاً مشاهد التقتيل والموتى وجوع الاسرى والامم المسيية او دافعي الجزية الذين غلبوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحي التعبيري ، لا بل خففت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية ، ان لم نقل ايضاً الواقع الطبيعي القوي . ولكن استمرت تلك التقاليد على شدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعداء والمواطنين والذين قهروهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش الناتئة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمها الملوك للآلهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته ، باي تحفظ . ولا تبلغ هذه الاعمال من حيث الفن درجة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحياة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لبنية ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،



ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القرينة ان تكشف عن نفسها من خلال وضمة فنية : فيطلق الخيال بناء مستعملا يده كقوى ، او في الحميم تعني الوالدة بابنها او يحمي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حداً فائقاً بعض المرات ايضاً ، خاصة في درس واطهار الحيوانات . وفي هذا المجال



يحوي المتحف البريطاني روائع راهية صادرة عن قصر اشورباينبال في بابل ، منها اللبوة المجروحة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهم بينما ينفجر من شدتها صراخ الألم الشديد . ويشكل هذا النموذج اروع واشهر وحدات هذه المجموعة التي لن تنسى .

لم يكن النقش التزيين المرسوم البارز إلا والمرخوف بالطين وسيلة للتزيين ،

من ضمن وسائل اخرى متعددة : إذ كانت من المناسب ان لا تغطي الوتيرة الواحدة على مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ نماذج جيدة لسرعة زواله .

الشكل ١٤ - بابل عتبة الفتح الفارسي ( ٥٣٩ ق.م. )  
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصوى ، ويشمله الجدار الخارجي وهو قصر سوخنصر الصفي ، ت ، الهيكل ؛ ت ٢ ، هيكل إشتار ؛ ت ٣ ، هيكل مردوك زقورات مردوك .

وانما نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كالا تقنياً . لذا وجب انتظار اعمال التنقيب في ماري ، عتبة الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقديم الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الريفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضيفوا على الآجر الاسمر نوراً وبهجه . وهكذا نجد مساحات واسعة باللون الاصفر ، والازرق الخفيف ، والاحمر والابيض السح ، عليها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجعلوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تربين الآجر بالمينا كما تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواه هو تزويق باب هيكلي إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لَوَّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرطاً . وكانت الالوان خفيفة . ولَوَّن الجزء السفلي بالاررق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهية تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الابراج والعمد رسموا بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً منضدة تنضيداً تتشابه فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرن ، يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسيرة الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منمعة ايضاً ، تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمينا نافراً على الخط العمودي . وقدروا انه قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تنياً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل فني يدعو الى الغرابة وان هو لم يخل من بعض الدقة . وتشابكت في هذا المجال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المغالى فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمينا .

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثانوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك فن النقش على الحجر لكثرة ما تركه من آثار ، تحوي المتاحف كالمجموعات الخاصة آلافاً منها ، إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محل توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقياً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم الحامل بمثابة تعويذة : اذا كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غدا طبيعياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة ميثولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشدد او تقل وضوحاً .

وحفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافراً على الخزف حيث يطبع . ولهذا الغرض استعملوا حجراً منتخبا ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم الخ ، فحصلوا على اختتام مسطحة ومنحروية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقباً على خط محورها للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالباً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتفنون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفاً في الخلق المتزن ، ومهارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كثُر الطلب فيما بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة مما دعا الى العمل بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنية ، والمعادن ، والثياب والاثاث الخ ؛ ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناهما في النماذج التي اتينا امامها على ذكرها - هذا ان توقفنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامل المصادفة وامكانية حفظ الاشياء .

## الخاتمة

اننا دون شك ، ومهما كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث ما حققته ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضاً لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامة وللتوجيهات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تفتقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكاناً ضيقاً للسخرية والتمرح . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المقصودة التي يظهرها الاشوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادئ يذوب الفرد في المجموعة التي تذيبه العذاب والهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتغاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاه مختلفاً ، لان عبادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولأن الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الآلهة . لذا فان لانصرار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر ، وقعا اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفظ بقسط قليل بمبدأ حرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللأوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والاشراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحمله ذلك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هذا المنوال لاعتقاده المتين بمقاربة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفردته . وهذا ما حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نلس عندهم الجدة والدقة والمثابرة على العمل . . وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض المعلوم المباشرة . وسيحصد الورثة ثمرة جهودهم ، ولكنهم سيتبعون طرقاً اقل حكمة ، وان كان ذلك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحملهم على ارتكاب اكثر من خطأ .